قصة أصحاب الأخدود

كتبه

د/ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين







رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٩١٤٦

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٢٠١٥٢٩٠٨-٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٦٧١٤٣٦٨-٠١٠٢٧٧١٠٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ما زلنا في أمسّ الحاجة إلى تدبر قصص الدعوة إلى الله في الكتاب والسنة ؛ لنعرف منها كيف يُدارُ هذا الصراع بين الحق والباطل ، ولنتعلم أولويات العمل والدعوة وميزان الترجيح بين المصلحة والمفسدة في مثل هذه المرحلة الحرجة ـ مرحلة

تحول الأمة من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ـ هذه المرحلة التي تشتبك فيها المصالح والمفاسد ولابد ، وتشتبه الوسائل المشروعة وغيرها على الدعاة إلى الله وأتباعهم ، وتختلف فيها أوجه النظر حول مقاييس النصر والهزيمة ، وتتفرق فيها إرادات الناس ـ جماعات وأفرادًا ـ إلى تحقيق غايات متباينة مختلفة يظن كل فريق أن غايته أولى الغايات وأن غيره إنما يشتغل بغير طائل ، ويأتي قصص الأنبياء وأتباعهم في القرآن والسنة ، ينير لأهل الحق الطريق ويبين لهم مفارق الطرق التي يَضل عندها من يَضل ، خاصة وأن أكثر هذا القصص ـ إن لم يكن كله ـ يتناول هذه المرحلة .

وقصة أصحاب الأخدود التي ذكرت السنة تفاصيلها ، وذكر القرآن غايتها من أعظم القصص نفعًا وبيانًا ، وتشتمل على فوائد جمة يحتاج كل لفظ منها إلى تدبر وتفكر ؛ لنستخلص منه العبر والعظات .

قصة أصحاب الأخدود في السنة النبوية

عن صهيب ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : « كان مَلِكٌ فيمَنْ كان قبْلَكم ، وكان له ساحرٌ ، فلما كَبِر قال للملكِ : إني قد كَبِرْتُ ، فابْعَثْ إليَّ غلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ، فَبَعَثَ إليه غُلامًا يُعلِّمُه ، فكان في طريقِه ـ إذا سَلَكَ ـ راهبٌ ، فَقَعَدَ إليه وسَمِعَ كلامَه فأَعْجَبَه ، فكان إذا أَتَى الساحِرَ مَرَّ بالراهِبِ وقَعَدَ إليه ، فإذا أتى الساحِرَ ضَرَبَه ، فشكا ذلك إلى الراهبِ فقال : إذا خَشِيتَ الساحرَ فقُلْ : حَبَسَني أَهْلي ، وإذا خَشِيتَ أهلَكَ فقُلْ : حَبَسَني الساحِرُ ، فبينما هو كذلِكَ إذْ أَتَى عَلى دَابَّةٍ عَظيمةٍ قد حَبَسَت النَّاسَ ، فقال : اليومَ أَعْلَمُ آلساحِرُ أفضَلُ أم الراهِبُ أفضلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فقال : اللهمَّ إنْ كانَ أَمْرُ الراهِبِ أَحَبَّ إليكَ مِنْ أَمْرِ الساحِرِ فاقْتُلْ هذه الدابّةَ حتى يَمْضِيَ الناسُ . فَرَمَاها فَقَتَلَها ، وَمَضَى الناسُ ، فَأَتَى الراهِبَ فَأَخْبَرَه ، فقال له الراهب : أَيْ بُنَيَّ ، أَنْتَ اليومَ أَفْضَلُ مِنّي ؛ قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أَرَى ، وإنَّكَ سَتُبْتَلَى فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عليَّ .

وكان الغُلامُ يُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ويُداوِي النّاسَ مِنْ سائِرِ الأدْوَاءِ ، فَسَمِعَ جَليسٌ للمَلِكِ كَان قد عَمِيَ ، فَأتاهُ بهدايا كَثيرَةٍ فقال : ما هَهُنا لَكَ أَجْمَعُ إنْ أنتَ شَفَيْتَني . فقال : إنّي لا أَشْفِي أَحَدًا ، إنما يَشْفِي اللهُ ، فإنْ أنتَ آمنْتَ بالله دعوتُ اللهَ فشفاكَ . فآمَنَ بالله فشفاهُ اللهُ ، فَأَتَى الملِكَ فجَلَسَ إليه كما كان يجلِسُ فقال له الملَكُ : مَنْ رَدَّ عليكَ بَصَرَكَ ؟ قال : ربي . قال : وَلَكَ ربٌّ غَيري ؟ قال : ربي وربُّكَ اللهُ . فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتى دَلَّ على الغُلام .

فَجِيءَ بالغُلام فقال له الملِكُ : أيْ بُنَيَّ قد بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ ما تُبرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ !! فقال : إنّي لا أَشْفِي أَحَدًا إنما يَشْفِي اللهُ . فَأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتى دَلَّ على الراهِبِ ، فجِيءَ بالراهِبِ فقيلَ له : ارْجِعْ عن دِينِكَ فأبَى ، فدعا بالمِنْشارِ فَوَضَعَ المِنْشارَ في مَفْرِقِ رأسِه فشَقَّه حتى وَقَعَ شِقّاهُ ، ثم جِيءَ بجَليسِ الملِكِ فقيلَ له : ارْجِعْ عن دينِكَ ، فأبَى فوضَعَ المِنْشارَ في مَفْرِقِ رأسِه فشَقَّه به حتى وَقَعَ شِقاه ، ثم جِيءَ بالغُلامِ فقيل له : ارْجِعْ عن دينِكَ فأبَى ، فَدَفَعَه إلى

نَفَرٍ مِن أَصحابِه فقال : اذهبوا به إلى جَبَلِ كذا وكذا فاصْعَدوا به الجَبَل فإذا بَلَغْتُم ذُرْوَتَه فإنْ رَجَعَ عن دِينِه وإلا فاطْرَحُوهُ . فَذَهَبُوا به فَصَعِدُوا به الجَبَل فقال : اللهم اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتَ . فَرَجَفَ بهم الجبلُ فَسَقَطُوا وجَاءَ يمْشي إلى المِلِكِ فقال له المِلِكُ : ما فَعَلَ أصحابُك ؟ قال : كفانِيهِمُ اللهُ . فَدَفَعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحَابِه فقال : اذْهَبُوا به فاحْمِلُوه في قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ فإن رَجَعَ عن دِينِه وإلا فَاقْذِفُوا . فَذَهَبُوا به فقال : اللهم اكْفِنِيهِمْ بما شِئْتِ . فانْكَفَأَتْ بِهِم السفينةُ فَغَرِقوا وجاءَ يمْشِي إلى المِلِكِ ، فقال له المِلِكُ : ما فعَلَ أصحابُك قال : كفَانِيهِمُ اللهُ .

فقال للمِلِكِ : إنكَ لستَ بقاتِلِي حتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به . قال : وما هو ؟ قال : تَجْمَعُ النّاسَ في صَعِيدٍ واحِدٍ وتَصْلُبُني على جِذْعٍ ، ثم خُذْ سَهْمًا مِن كِنانتي ، ثم ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ، ثم قل : بسمِ اللهِ ربِّ الغلامِ ، ثم ارْمِني فإنك إذا فعلْتَ ذلكَ قَتَلْتَني .

فَجَمَعَ الناسَ في صَعيدٍ واحِدٍ وصَلَبَه على جِذْعٍ ، ثم أَخَذَ

سَهْمًا مِن كِنَانَتِه ، ثم وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ، ثم قال : بسمِ الله رَبِّ الغلامِ ، ثم رماه فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِه فَوَضَعَ يَدَه في صُدغِه في موْضع السهم فمات . فقالَ الناسُ : آمَنَّا بِربِّ الغُلام آمَنَّا بربِّ الغُلامِ آمَنَّا بِربِّ الغُلامِ .

فَأُتِيَ الملِكُ فقِيلَ له : أَرَأَيْتَ مَا كُنتَ تَحْذَرُ قد والله نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ ، قد آمَنَ النّاسُ . فَأَمَر بالأُخدودِ في أفواهِ السِكَكِ فَخُدَّتْ وأَضْرَمَ النيرانَ وقال : مَنْ لم يَرْجِعْ عن دِينِه فَأَحْمُوهُ فيها أو قِيلَ له : اقْتَحِمْ ، فَفَعَلُوا حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صَبِيٌ لها فَتَقَاعَسَتْ أنْ تَقَعَ فيها ، فقال لها الغلامُ : يا أُمَّه اصبِرِي فإنَّكِ على الحَقِ »[(١)] .

(١) رواه مسلم في الزهد - باب : قصة أصحاب الأخدود .

من رؤوس الطواغيت

قوله ﷺ : « **كان مَلِكٌ فيمَنْ كَان قَبْلَكُمْ وكانَ له ساحِرٌ** » .

نرى هنا التعاون بين رؤوس الطواغيت على نشر الفساد في الأرض ، **فالحاكم** الذي يحكم بغير ما أنزل الله ، ويدّعي لنفسه صفة الحكم من دون الله فهو طاغوت ، وكل من يدعي الربوبية لمن تحته من الناس ، بعضهم بلسان المقال ـ كهذا الملك وكفرعون والنمرود ـ وأكثرهم يدعيها بلسان الحال ؛ حين يفرض على الناس طاعته في تشريع يخالف شرع الله كأكثر طواغيت اليوم ، و ما أكثر من يستجيب .

والساحر الذي يدّعي ملْك الضر والنفع ، والخلق ، والإحياء والإماتة ، أو تقليب الأمور وتغيير الخلق ، أو تقليب القلوب على الحب والبغض وفق ما يريد هو أيضًا من الطواغيت ؛ قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ** ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، ولقد ثبت في

الصحيح : « **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ، قالوا : يا رسُولَ الله ومَا هُنَّ ، قال : الشِّركُ بالله ، والسِّحْرُ ...** » (١) الحديث ، وثبت قتل الساحر عن ثلاثة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ .

واختلف العلماء في كفر الساحر فمنهم من كفره مطلقًا كمالك وأبي حنيفة وأحمد ، ومنهم من فصَّل كالشافعي فمن كان سحره متضمنًا كفرًا كفر وإلا فلا يكفر إلا أن يستحله (٢) ، ومن أنواع الكفر التي يُكفَّرُ بها التقرب إلى الكواكب والنجوم والشياطين ، والذبح لهم ، والاستعاذة والاستغاثة بهم ، والاستهانة بالمصحف أو ببعض آيات القرآن والعياذ بالله .

والملوك الظلمة يحتاجون دائمًا إلى السحرة ؛ لتوطيد ملكهم وتقليب الأمور حتى يراها الناس على خلاف ما هي عليه ، ولإيقاع الرهبة في نفوسهم كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأعراف : ١١٦]

---

(١) رواه البخاري (٢٥٦٠-٥٣٢٢-٦٣٥١) ، ومسلم (١٢٩) ، وأبو داود (٢٤٩٠) .

(٢) وهذا التفصيل هو الراجح .

وإن من أخطر أنواع السحر وأخفاها وأوسعها انتشارًا في زمننا الحاضر ، وأعظمها أثرًا في توطيد ملك أدعياء الربوبية ما بَيَّنَه رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح : « **إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا** »[1] .

فالكلمة التي تجعل الحق في نفوس الناس باطلًا ، وتزين لهم الباطل حتى يكون هو الحق عندهم ، والبيان والإعلام الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ويجعل الناس يعتقدون عكس الحق ؛ لَهُوَ من أشد أنواع السحر أثرًا في الخلق ؛ فلا نرى عجبًا أن يهتم الطواغيت بهذا النوع من السحر الجديد القديم .

وأضف إلى ذلك وجاهته وحضارته المزعومة وتقدمه وانتشاره حتى دخل كل بيت ، وكل عقل وفكر ، فكانت له آثاره المدمرة على إدراك الأمة وتمييزها .

والغرض أن كل ملك ظالم لابد له من ساحر ، وإن تنوعت الوسائل واختلفت الأشكال .

(١) رواه البخاري (٤٧٤٩-٥٣٢٥) ، وأبو داود (٤٣٥٤-٤٣٥٦) ، وأحمد (١٧٥٩٨) ، ومالك (١٥٦٤) .

قوله ﷺ : « **فلما كَبِرَ قال للمَلِك : إني قدْ كَبِرتُ فابْعَثْ إليَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ، فَبَعَثَ إليه غُلامًا يُعَلِّمُهُ** » .

عجبًا لأمر هؤلاء الطواغيت ، لا يؤمنون بآخرة ولا ببعث ، ولا يرجون حياة بعد الموت ولا أجرًا ولا ثوابًا ، ومع ذلك يحرصون على استمرار الشر من بعدهم ويخافون من ضياعه بعد مماتهم ، فَلِحِساب مَن يعملون ؟ ولماذا يسعون إلى تنشئة الأجيال الجديدة على مثل باطلهم ؟

إن اتباع الشهوات والرغبة العاجلة في التلذذ بها في الدنيا يفسر لنا ما يقومون به في حياتهم ولكنه لا يفسر لنا رغبتهم في بقاء الشقاء على البشر بعد وفاتهم .

والحق أنهم يعملون في الحقيقة لحساب عدو الإنسان الأول ورأس الطواغيت كلها ـ الشيطان ـ الذي يوحي إليهم بتلقين الضلال للأجيال القادمة ؛ ليحصل له غرضه الخبيث الذي بينه لنا رب العالمين بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾

[فاطر : ٦]

التربية ... التربية

وتأمل قول الساحر : « **فابْعَثْ إليَّ غُلامًا** » لتعرف كيف يهتم الأعداء بالأبناء ، ولماذا يحرصون على إفسادهم منذ نعومة أظفارهم ؟ فهو لم يطلب رجلًا كبيرًا ، بل طلب غلامًا ، فإن من شب على شيء شاب عليه ، لذا نرى دائمًا أعوان الشياطين يركزون على أمر التعليم خاصة في الصغر ، وعلمنا من التاريخ كيف يختارون الأذكياء من أبناء الأمة وشبابها الصغار وينقلونهم إلى بلادهم ؛ ليتربوا على أعينهم وليكونوا صنيعة لهم إذا عادوا ، وليقودوا الناس لهم بالسحر الحديث كقطيع الغنم بلا حديد ولا نار .

فأين المسلمون من مسؤولية تعليم أبنائهم دين الله وقد علموا ما أراده أعداؤهم ، وما قد وضعوه لهؤلاء الأبناء من مناهج تعليم الفساد والمنكر وقلب الحقائق ، وبغض الخير وتمييع الدين ؛ لينشؤوا على الكفر والنفاق .

أين المسلمون من هذه المسؤولية وقد علموا قول نبيهم ﷺ :

« مُرُوا أبناءَكم بالصّلاةِ لسَبْعٍ سنين ، واضْرِبُوهُمْ عليها لِعَشْرِ سنين » [1] ؟

لابد لنا هنا من دور هائل وعظيم يرتكز على قلع أشجار الباطل وحماية الأبناء منها ، وغرس أشجار الحق في قلوب طلائع أمتنا وصغارها .

ولا يظن أحد الأمر مستحيلًا أمام إمكانيات الباطل الهائلة فإن شجرة الباطل سهلة الاجتثاث ، وشجرة الحق تسقيها فطرة الإنسان فترسخ في قلبه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٤-٢٦] .

وهذه القصة التي بين أيدينا من أوضح الأدلة على ما نقصد إليه ، فإن إمكانيات الملك ودولته وساحره وأعوانه كانت مجندة لإعداد هذا الغلام لوظيفة « ساحر الملك » ،

(١) حديث حسن : رواه أحمد (٦٤٦٧) ، وأبو داود (٤١٨) .

والأجواء مهيأة لذلك أعظم تهيئة ، ولكن صوت الحق الذي كان خافتًا خافيًا خائفًا كان أعلى وأعمق أثرًا ، بل كان سببًا في نقل أمة بأكملها من الظلمات إلى النور ، فيا أيها المسلمون .... أبناءكم وغلمانكم ، انقذوهم من أيدي سحرة العصر الحديث .

الرصيد الهائل لأهل الحق في مواجهة قوى الباطل وأثره في وسائل التغيير

قوله ﷺ : « **فكان في طَرِيقِه إذا سَلَكَ راهِبٌ ، فَقَعَدَ إليه وَسَمِعَ كَلامَه فأعْجَبَه** » .

يظهر من هذا الجزء من القصة أن زمنها كان بعد المسيح عليه الصلاة والسلام ، وهذا ما رجحه غير واحد من أهل السير ؛ لأن الرهبانية إنما ظهرت في أتباع المسيح عليه السلام ، ولكنه يظهر أيضًا جليًا من القصة أنه كان من أهل التوحيد والإيمان لا من أصحاب التثليث والكفران ، فهو أحد غُبَّر أهل الكتاب ـ أي : بقاياهم ـ الذين بقوا على التوحيد كما دل عليه قول النبي ﷺ عن حال الناس قبل بعثته : « **وإنَّ اللهَ نَظَرَ إلى أَهْلِ الأرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُم وعَجَمَهُم إلا بَقَايا مِنْ أهلِ الكتابِ** » [1] كما كان سلمان رضي الله عنه قد تلقى دعوة التوحيد عن بعض هؤلاء .

(١) رواه مسلم (٥١٠٩) .

وهذا يدلنا على أن أتباع المسيح لم يزل فيهم موحدون مؤمنون إلى زمن البعثة النبوية ، رغم انتشار وثنية التثليث وتأليه المسيح بعد مَجْمَع نِيقِيَةَ الأول في المائة الرابعة من ميلاد المسيح الذي عقد في قصر قسطنطين باني القسطنطينية لما دخل في النصرانية لتقرير مسألة ألوهية المسيح ، كما يذكر ذلك مؤرخوهم ، وكان فيه التفرق والاختلاف ، ونصر هو - خذله الله وأخزاه - قولة القلة القائلة بألوهية المسيح ونشر هذا الكفر على أنه دين المسيح ، والمسيح وسائر الرسل منه براء ، فإن المسيح لم يأت إلا بالتوحيد ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٧] .

ورغم انتشار مذهب التثليث والشرك بين النصارى منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا إلا أنه قد كان هناك بقايا من الموحدين في ذلك العهد أمثال هذا الراهب في قصتنا ، فقعد إليه الغلام أثناء ذهابه لتعلم السحر فسمع كلامه فأعجبه .

وهنا نرى أن الغلام رغم أنه يتلقى تعليمًا مزدوجًا ويسمع كلامًا متناقضًا ، فالساحر يعلمه أن الملك ربه ولا رب غيره ،

والراهب يعلمه أن الله ربه ولا رب سواه ، إلا أنه قد مال إلى كلام الراهب وأعجب به ، ذلك أن الحق له رصيد عظيم في داخل النفس البشرية ، رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقال النبي ﷺ : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ - وفي رواية : على المِلَّةِ - فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أو يُنَصِّرَانِه أو يُمَجِّسَانِه** » [(١)] .

هذا الرصيد الذي يجعل قلوب الخلق تنجذب بقوة هائلة إلى الحق إذا سمعته ولو كان من فرد واحد ، والباطل أمة بأسرها ، كيف لا ؟ وقد أُخِذَ على كل واحد منا ميثاق ونحن في عالم الذر ذكرنا الله به ، ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وهذا رصيد أعظم من وسائل الإعلام

(١) رواه البخاري (١٢٧٠-١٢٩٦) ، ومسلم (٤٨٠٥) ، والترمذي (٢٠٦٤) ، وأبو داود (٤٠٩١-٤٠٩٣) ، وأحمد (٦٨٨٤-٧٣٨٧) ، ومالك (٥٠٧) .

والإفساد والتوجيه والبث المباشر ، وأعتى القوى العسكرية وأسلحة الدمار والإرهاب ، ولا تصح مقولة من يقول : إن ما يبنيه الدعاة في سنة يهدمه أهل الباطل في ساعة بما عندهم من وسائل هائلة . يقصد بذلك اليأس من أثر التربية في التغيير ، وأن العلاج لا يكون إلا بتغيير قمة المجتمع ومركز القوة فيه ، دون ذلك السعي الحثيث البطيء - فيما يظن - للتغيير من خلال تنشئة الأفراد وتربيتهم واحدًا واحدًا ، مع أن الناظر في سيرة الأنبياء جميعًا وأتباعهم أيضًا يرى أن التغيير دائمًا لا يكون بتغيير قمة المجتمع ، وإنما كان دائمًا بتربية الأفراد وإيجاد الشخصية الإسلامية المتكاملة ، والطائفة المؤمنة التي ينصر الله بها دينه بالقرآن أو السنان ، فهذه المقولة خاطئة بلا شك ؛ لمخالفتها سنة الأنبياء والصالحين .

إن ما يهدمه أهل الباطل في ساعة إنما هو البناء الهش الذي لا حقيقة له وإنما هو عيب البنّائين وتقصيرهم في البناء ، إن الحق لا يهدم في نفوس المؤمنين الصادقين ، ولو ظل أهل الباطل يسعون لهدمه مدة الدنيا بأسرها ، فلا تيأسوا يا دعاة

الإسلام ولرُبَّ غلام ممن تعلمونهم الدين ترونه يجلس بين أيديكم اليوم يكون به غدًا نجاة الأمة وإنقاذها من الهلاك ـ بل ذلك الحاصل بلا ريب إن شاء الله ـ فاستمروا في الدعوة والبيان ولا ترهبوا أسلحة أهل الباطل وإن كثرت فإن ﴿ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] .

قوله ﷺ : « **فكان إذا أتى السَّاحِرَ مَرَّ بالراهبِ وقعد إليه ، فإذا أتى السّاحرَ ضَرَبَه فَشَكا ذلك إلى الراهِبِ ، فقال : إذا خَشِيتَ السّاحِر فقُلْ : حَبَسَني أهلي ، وإذا خَشِيتَ أهلَكَ فقُلْ : حَبَسَني الساحرُ** » .

ليتأمل طلاب العلم هذا الحرص من الغلام على طلب العلم رغم الضرر الذي يتعرض له من أهله ومن الساحر ، ويحضر الدرس يواظب عليه ولو ضرب ، فأين طلاب العلم من هذا ؟

أتى علينا وقت تتهم فيه الدعوة بأنها ليست إلا طلب علم ، فإذا نحن الآن لا نجد طلاب علم صادقين في الطلب : لماذا يُعرض الكثير عن الدرس رغم أنهم لا يضربهم أحد ولا يؤذيهم ؟ وإنما هو الانشغال بالدنيا ، فاحذر يا أخي من ذلك ، فإن الإعراض عن طلب العلم يستجلب إعراض الرب سبحانه عنك ، قال النبي ﷺ : « **وأما الثالِثُ فأعْرَضَ ؛ فأعْرَضَ اللهُ عنه** » (1) وهذا فيمن انصرف عن مجلس العلم .

---

(1) رواه البخاري (٦٤-٤٥٤) ، ومسلم (٢٠٤٢) ، والترمذي (٢٦٤٨) .

مسألة :

هل يطيع الإنسان والديه في ترك دروس العلم ؟

الجواب :

إذا كان العلم فرض عين كتعلم الإيمان والتوحيد ، والعبادة الواجبة كالطهارة والصلاة وعلم الحلال والحرام والأخلاق الواجبة ، فلا تجوز طاعة الوالدين أو غيرهم في ترك هذا ؛ لقوله ﷺ : « **طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ** »[1] وقوله : « **إنما الطاعَةُ في المعْرُوفِ** »[2] .

وإذا كان فرض كفاية قد تعين لعدم من يقوم به ، أو لشروع الطالب في طلبه وصلاحيته لما لا يصلح له غيره ، فإن الشروع في طلب العلم كالشروع في الجهاد كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٦١٢-٧٦١٦) ، ومسلم (٣٤٢٤-٣٤٢٥) ، والنسائي (٤١٣٤) ، وأبو داود (٣٢٥٦) ، وأحمد (٥٨٨-٦٨٦-٩٦٩) .

فأما إن كان علمًا غير واجبٍ ولا يحصل بتركه ضرر بالابن ، فقد ذكر النووي فيه وجهين في لزوم طاعة الوالدين في ترك السفر له [1] ، والصحيح عدم السفر بغير إذنهما لعموم أدلة بر الوالدين .

وعلى أية حال فعلى الابن الحذر من عقوق والديه في الجملة والاجتهاد في الإحسان إليهما والمبالغة في برهما ، خاصة إذا عصاهما في طاعة الله الواجبة ليعوض الأثر الناتج عن ذلك .

(١) راجع روضة الطالبين جـ ١٠ ، ومجموع الفتاوى جـ ٣٠ .

مسألة :

هل يجوز الكذب للتخلص من الظلم كالضرب أو غيره ؟

والجواب :

إذا لم يكن هناك طريق للتخلص من الظلم إلا بالكذب جاز الكذب ، كما دل عليه هذا الحديث وغيره ، والتعريض ـ ما أمكن ـ أَوْلَى ، كما قال إبراهيم عليه السلام عن سارة إنها أخته ـ يعني في دين الله ـ والحديث في هذا متفق عليه [(١)] .

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عليه السلام قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ الله ، قَوْلُهُ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَوْلُهُ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنَّ هَذَا الجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي ، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلَامِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الجَبَّارِ أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، فَأُتِيَ بِهَا ، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَى الصَّلَاةِ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً ، فَقَالَ لَهَا : ادْعِي الله أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلَا أَضُرُّكِ ، فَفَعَلَتْ ، فَعَادَ ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ القَبْضَةِ الأُولَى ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ ، فَفَعَلَتْ ، فَعَادَ ، فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ القَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ ، فَقَالَ :
=

وقد يجب الكذب إذا لم يكن الدفع عن دم امرئ مسلم أو عرضه أو ماله إلا به ، وذلك من باب الضرورات التي تبيح المحظورات ، بل قد توجبها إذا خشي الهلاك .

ولابد أن ينتبه المسلم إلى أن الأصل لزوم الصدق وحرمة الكذب ، فلا يتوسع فيما لا ضرورة فيه بزعم أنه من المباح .

ادعِي الله أَنْ يُطْلِقَ يَدِي فَلَكِ الله أَنْ لَا أَضُرَّكِ ، فَفَعَلَتْ وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ ، وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي وَأَعْطِهَا هَاجَرَ ، قَالَ : فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي ، فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا : مَهْيَمْ ، قَالَتْ : خَيْرًا ، كَفَّ اللهُ يَدَ الْفَاجِرِ وَأَخْدَمَ خَادِمًا » ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ . رواه البخاري (٣٣٥٨) ، ومسلم (٢٣٧١) وهذا لفظه .

قوله ﷺ : « **فَبَيْنَما هُو كَذلكَ إذْ أَتَى على دابَّةٍ عَظيمَةٍ قد حَبَسَتِ الناسَ ، فقال : اليومَ أعلَمُ : آلساحِرُ أفضَلُ أم الراهبُ أفْضَلُ ، فَأَخَذَ حَجَرًا فقال : اللهم إنْ كانَ أَمْرُ الراهِبِ أَحَبَّ إليكَ مِنْ أمْرِ الساحِرِ فاقْتُلْ هذه الدابَّةَ حتى يَمْضِيَ الناسُ** » .

في هذا الجزء من القصة نرى أثر الازدواج في منهج التلقي عند الغلام ، وهذا هو الذي أحدث له نوعًا من الاضطراب والتردد بين المنهجين ، وإن كان واضحًا مَيْلُه للمنهج الحق من عدة نقاط :

أولها : أنه فزع إلى الدعاء والتضرع إلى الله متوسلًا إليه بإلهيته ؛ ليبين له أيُّ الأمرين أفضل ، ولا شك أن هذا أمر إنما تعلمه من الراهب لا من الساحر .

والدعاء سلاح من أسلحة المؤمنين ، ومن أعظم أسباب نصرهم ، وفوق أنه مأمور به شرعًا كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] فهو يوافق

حاجة فطرية ضرورية في الإنسان وهي شعوره بالفقر والحاجة والعجز عن المعرفة وعن القدرة معًا إلا ما هدي إليه وأعين عليه ، وهو بالضرورة يلجأ في دعائه إلى فوق ، وهذا من أوضح الأدلة الفطرية على علو الله وفوقيته على خلقه .

ثانيها : أنه في دعائه طلب ما يحبه الله : « **اللهم إن كانَ أَمْرُ الراهِبِ أَحَبَّ إليكَ** » فهو إذن يبحث عما يحبه الله ، وهذا أيضًا بلا شك مما تعلمه من الراهب لا من الساحر .

وهذا ينبهنا إلى أمر عظيم الشأن في التربية وهو أنه يلزم أن يربَّى الأبناء على الحب : حب الله وحب رسوله ﷺ وحب طاعته ، وأن تكون همة الإنسان مصروفة إلى البحث عن ذلك وأن يكون هو ا لميزان الذي توزن به الأمور .

والحب روح العبادة وبه يجد الإنسان أعظم نعيم في هذه الدنيا ، وهذا الأمر يسد فاقة القلب وضرورته التي لا يسدها سواه ، فإن القلوب فطرت على الميل إلى الله ، فالحنيف هو المائل إلى الله ، المعرض عن غيره كما قال ﷻ : ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقال : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ**

حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ﴾ [الروم : ٣٠] .

فالقلوب لا تستقر ولا تستريح إلا بحب الله وحب من يحبه وحب ما يحبه من الطاعات والأعمال .

ثالثها : أنه قدم في كلامه أمر الراهب على أمر الساحر فقال : « **إن كان أمرُ الراهِبِ أَحَبَّ إليكَ مِنْ أمْرِ الساحِرِ** » وهذا يدل دلالة واضحة على ميله إلى أمر الراهب .

رابعها : أنه سعى لمصلحة الناس وخيرهم فهو يدعو الله ليزول عنهم خطر ذلك الحيوان الذي أفزعهم وسد عليهم طريقهم ، وهذا أمر إنما حصل له من الراهب لا من الساحر ، فإن الساحر إنما يعلمه كيف يكيد وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، ويعلمه ما يضر ولا ينفع ، كما أخبر الله عنهم : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ ﴾ [البقرة : ١٠٢] فلا نفع في السحر مطلقًا ، أما الإسلام فهو يعلّم أتباعه حب الخير للخلق في دينهم ودنياهم ، كيف لا ؛ والرسل هم أنصح الخلق للخلق ، وقولهم دائمًا : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف : ٦٨] ، وأتباعهم هم خير الناس للناس .

وهذا الأمر أوضح ما يكون في أمة محمد ﷺ الذي قال : « **أَنْتُمْ خَيْرُ الناسِ للناسِ تُدْخِلُونَهُمُ الجَنَّةَ في السَّلاسِلِ** »[1] .

فأمر الجهاد الذي قد يظنه البعض شدة وقسوة هو في الحقيقة رحمة وشفقة بالبشرية ، فهم يزيحون عنهم الطواغيت التي تُعَبِّدهم لغير الله وتسلمهم لعدوهم اللدود الشيطان الرجيم .

فقد يكونون في أول الأمر أسرى المسلمين في السلاسل فلا يمسي أحدهم بعد تعلمه الإسلام إلا والإسلام أحب إليه من أهله ، بل ونفسه التي بين جنبيه .

ومن هنا فإن حب الخير للناس صفة أساسية في الدعاة إلى الله تفتح لهم القلوب وتقربهم من الخلق ، وتأملْ قول الله لنبيه ﷺ : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٠) بلفظ : « **عَجِبَ الله مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ** » .
وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٨٧٧) بلفظ : « **ألا تسألوني مما ضحكت ؟** » ، قلنا : يا رسول الله ، مما ضحكت ؟ قال : « **رأيت ناسًا من أمتي يساقون إلى الجنة في السلاسل ، ما أكرهها إليهم** » ، قلنا : من هم ؟! قال : « **قوم من العجم يسبيهم المهاجرون فيدخلونهم في الإسلام** » .

وهذه السمة لابد أن تظهر في الداعي من أول مقابلة ، ألم تسمع إلى قول الله تعالى عن صاحبيْ يوسف في السجن أنهما قالا له ـ ولم يكن لهما به معرفة من قبل ـ : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] فالإحسان إلى الناس وحب الخير لهم يظهر في الكلمة والبسمة ونبرة الصوت ورقة العبارة والرفق في الحديث والنصح الدائم .

ولا ينافي هذا أبدًا بغض الكافرين وعداوتهم حال كفرهم ، فإنك إنما ترجو إخراجهم من هذا الذي تكرهه وتبغضهم من أجله إلى ما تحبه وتحبهم لو فعلوه .

والقول اللين لا ينافي بغض الكفار على كفرهم ؛ قال تعالى : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] .

وبعض الناس يظن أن غرض الداعي في إقامة الحجة ، أن يجعل الناس يستحقون العذاب ، وهذا يظهر في طريقته في الدعوة والبيان والاهتمام بإصدار الأحكام حتى قبل الدعوة والبلاغ ، وهذا دائمًا يكثر في أهل البدع ولا شك أن الإحسان يأسر الإنسان ، وتأمل قصة إسلام ثُمامَةَ بن أُثال ﷺ لتعرف

أثر الإحسان في الدعوة إلى الله ، فلا ريب أن سبيل السنة في البذل والعطاء وحب الخير العاجل والآجل لبني البشر هو خير سبيل .

خامسها : أنه أيقن بقدرة الله الذي لا يعجزه شيء على قتل هذه الدابة العظيمة برمية حجر من غلام مثله ، وهذا مما لا يقتل حيوانًا صغيرًا فضلًا عن دابة كبيرة عظيمة ، ولكنها الثقة بالله وقدرته وحسن التوكل عليه من محب صادق المحبة يبحث عنها بجهده ويتحمل في سبيلها الألم والضرر ، ويتضرع إلى ربه ومولاه متوسلًا داعيًا .

فبهذا كله قويت تلك الرمية على قتل الدابة كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] وبهذا الإخلاص والصدق صار الغلام في عدد الصالحين والأولياء .

قوله ﷺ : « فَرَمَاها فَقَتَلَها وَمضَى النّاسُ » .

هذا الحديث يثبت كرامة الأولياء وإمكان خرق العادة لهم استجابة لدعائهم .

وإثبات كرامات الأولياء عقيدة أهل السنة والجماعة كما دل عليها القرآن والسنة وإجماع الصحابة والسلف .

ففي القرآن قصة أصحاب الكهف ولبثهم في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا بغير طعام ولا شراب .

وكذلك قصة مريم عليها السلام ، قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

قال غير واحد من السلف : « يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف » ، ومريم ليست من الأنبياء عند جمهور أهل العلم .

وفي قصة موسى ﷺ قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا

رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

فهذا الوحي وهذا الإخبار بالغيب كرامة لأم موسى وهي ليست نبية باتفاق العلماء كما نقله القرطبي .

وفي السنة حديث أضياف أبي بكر وفيه : « **فَجَعَلوا لَا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إلا رَبَا مِنْ أَسْفَلِها أَكْثَرَ منها** » (١) .

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ : « **لَقَدْ كَانَ فِيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ ، فإِنْ يَكُ فِي أُمَّتي أَحَدٌ فإنه عُمَرُ** » (٢) .

وفي البخاري أيضًا حديث أبي هريرة في قصة خبيب بن عدي ﷺ : وأنه حين كان أسيرًا عند أهل مكة وجدته بعض بنات بني الحارث يومًا يأكل قطفًا من عنب في يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة .

والأحاديث في كرامات الأولياء متواترة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية : « ومن

---

(١) وهو من رواية عبدالرحمن بن أبي بكر ، رواه البخاري (٥٦٧٦) ، ومسلم (٣٨٣٣) ، وأحمد (١٦١٩) .

(٢) رواه البخاري (٣٢١٠-٣٤١٣) ، ومسلم (٤٤١١) ، والترمذي (٣٦٢٦) ، وأحمد (٢٣١٥٠) .

أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات ، والمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها ، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة ، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة » .

قال الشيخ خليل هراس : « الكرامة أمر خارق للعادة يجريه الله على يد ولي من أوليائه معونة له على أمر ديني أو دنيوي ، ويفرق بينها وبين المعجزة بأن المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة » اهـ .

وهذا التعريف هو المعنى الاصطلاحي ، وإلا فالكرامة شرعًا : ما يكرم الله به أولياءه ، وأعظم أنواعها وأفضلها : الإكرام بطاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ ، كما أن أفضل الإلهام وأنفعه : إلهام الرشد ، وأعلى الكشف : الكشف عن الحق خاصة عند اختلاف الناس .

وأما الإلهام والكشف عن أمور غيبية فهي من ضمن

الكرامات ، كما سبق عن أم موسى وكما سيأتي في قصتنا ـ قصة الغلام وأصحاب الأخدود ـ أن الغلام هو الذي أخبر الملك عن طريقة قتله وأنه لا يُقتل إلا بها .

ولم ينكر الكرامات إلا أهل البدع .

*** ولابد هنا من التنبيه على أن أنوع الخوارق ثلاثة :**

النوع الأول : **المعجزة** : وهي ما يجريه الله على أيدي الأنبياء والرسل وهي تقترن بدعوى الرسالة .

والنوع الثاني : **الكرامة** : وهي ما يجريه الله على يد الولي ، وشَرْطُه الإيمان والتقوى قال تعالى : ﴿ **أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس : ٦٢-٦٣] والفرق بينها وبين المعجزة دعوى الرسالة ، والحقيقة أن كرامات الأولياء من جملة معجزات الأنبياء ؛ لأنهم ما نالوا هذه المنزلة إلا باتباعهم .

وأما النوع الثالث : فهو ما يقع من السحرة والكهان ، وأظهر ما يبينها صفاتهم القبيحة وأفعالهم المخالفة للشرع ، قال تعالى :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾
[الشعراء : ٢١٠-٢١١]

وفي قصة سحرة فرعون أوضح دليل على أن جنس معجزات الأنبياء لا يشبه أفعال السحرة بحيث يختلط الأمر ويلتبس على الناس .

وإن كان الأمر البين في التفرقة بين الولي وبين أفعال السحرة والكهان من أولياء الشيطان هو الطاعة والالتزام بالسنة كما روي عن الشافعي رحمه الله : « إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يسير على الماء فلا تصدقوه حتى تروا اتباعه للسنة » ، وهذا واضح كما بينا في شرط الولاية أنه الإيمان والتقوى .

فلا تتحقق الكرامة لمبتدع ضال أو لمشرك يدعو غير الله ، وما يجري لهم من خوارق العادات كالإمساك بالثعابين وضرب النفس بالسلاح ودخول النار ـ كما هو مشهور عن أتباع الطريقة الرفاعية وغيره ـ فهو مما يفعله الشيطان بهم ليلبس أمرهم على الناس ليكون ذريعة إلى الشرك .

ولابد لنا أيضًا أن نعلم أن كرامات الأولياء لا تعني

أنه يجوز دعاؤهم والاستغاثة بهم على الغيب أو سؤالهم عن الغيبيات ، فهذا كله من الشرك البين بأدلة القرآن القطعية ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٦] .

وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥-٦] .

وقال النبي ﷺ : « **الدعاء هو العبادة** »[1] .

أما طلب الدعاء من الصالحين فهو مشروع حال حياتهم وفي حضورهم ، وأما بعد وفاتهم أو في غيابهم فهذا الطلب من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف ولم يقل بها أحد من أهل العلم ، وليس يعني ذلك إنكار الكرامة للولي بعد موته فمن الكرامات ما يقع بعد الموت كحفظ البدن من التحلل والبِلَى كأبدان الشهداء ، وكما في قصة عاصم بن ثابت

(١) حديث صحيح : رواه الترمذي (٢٨٩٥-٣١٧٠-٣٢٩٤) ، وأبو داود (١٢٦٤) ، وابن ماجه (٣٨١٨) ، وأحمد (١٧٦٢٩-١٧٦٦٠-١٧٦٦٥-١٧٧٠٥-١٧٧٠٩) .

الأنصاري : « أن النحل حَمَى بدنه بعد استشهاده من أن يصل إليه الكفار »(١) .

---

(١) بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَأَةِ - وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ - ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو لِحْيَانَ ، فَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْ رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَقَالُوا : هَذَا تَمْرُ يَثْرِبَ ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ ، فَلَمَّا رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ لَجَئُوا إِلَى فَدْفَدٍ ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ ، فَقَالُوا لَهُمْ : انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ وَلَا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا ، قَالَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ - أَمِيرُ السَّرِيَّةِ - : أَمَّا أَنَا فَوَاللهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ ، فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةٍ ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، مِنْهُمْ : خُبَيْبٌ الْأَنْصَارِيُّ ، وَابْنُ دَثِنَةَ ، وَرَجُلٌ آخَرُ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ ، فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ ، وَاللهِ لَا أَصْحَبُكُمْ ، إِنَّ لِي فِي هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً ، يُرِيدُ الْقَتْلَى ، فَجَرَّرُوهُ وَعَالَجُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى ، فَقَتَلُوهُ ، فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وَابْنِ دَثِنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، فَابْتَاعَ خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا ، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُمْ حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ ، قَالَتْ : فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ ، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ فِي وَجْهِي ، فَقَالَ : تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ ، وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ ، وَاللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ ، وَكَانَتْ تَقُولُ : إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِنَ اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ : ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ، فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا ، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، =

ولكن الكرامة شيء يكرمهم الله به وليس سببًا لجواز سؤالهم وطلب قضاء الحاجات منهم على الغيب ـ أي : بعد موتهم أو في عدم حضورهم ـ .

ويلزم التنبيه في هذا المقام إلى أن الإلهام أو الكشف في حق الولي ليس بمعصوم ، بل يحتمل الخطأ والصواب كالرؤى المنامية ، فسيد الملهمين عمر ﷺ أخطأ يوم الحديبية وكان ما حدثته به نفسه وسوسةً عَمِلَ لها أعمالًا كما قال ـ يعني ليكفرها ـ ، ولذا لم يحتج عمر ﷺ على أحَد بأنه مُحدَّث أو مُلْهَم ، فالإلهام والكشف والرؤى ليست حجة شرعية يصح العمل بها ، ولكن قد يستأنس بها ، ووقوع خوارق للعادات لأحد الأولياء لا يعني عصمته أو صحة كل ما يقول به ، فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ .

مَا أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَضْرَعِي ، وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ ، فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ . فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا ، فَاسْتَجَابَ اللهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وَمَا أُصِيبُوا ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَبُعِثَ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا . رواه البخاري (٢٨١٨-٣٦٩٠) ، وأحمد (٧٥٨٧) .

قوله ﷺ : « **فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَه فقال له الراهِبُ : أيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليومَ أَفْضَلَ مِنِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ ما أَرى ، وإنكَ سَتُبْتَلَى فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عليَّ** » .

نرى هنا مثالًا عظيمًا لكل مربٍ وداعية وأستاذ ، فعندما علم هذا الراهب بما كان من الغلام من علامات الولاية من صدق المحبة وتحقيق الإخلاص لله ﷻ ، وما كان منه من دلائل الكرامة ، صرح له بأنه اليوم أفضل منه ولم يدخله كبر ولا عجب ولا حسد ، ولا منّ ، ولا نظر إلى سبقه وطول عبادته ، ولا نظر إلى سنه وصغر سن الغلام ، ولا إلى أنه الأستاذ والغلام التلميذ ، ولا وقع في نفسه خطيئة إبليس ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ ﴾ التي هي أصل أخطر أمراض القلوب ، ومن أعظم أسباب الكفر والعناد والعياذ بالله .

ونرى هنا أيضًا أن السبق إلى الله تعالى لا يرتبط بالسن وطول زمن العمل أو كثرته أو سبق الالتزام ، بقدر ما يرتبط بحال القلب وسلامته وما يقوم به من العبودية لله سبحانه : من الحب والإخلاص والخوف والرجاء والشوق إليه وصدق

اليقين والتوكل وغيرها من عبادات القلب .

وهذه أمة الإسلام أقصر أعمارًا وأضعف أجسامًا من الأمم السابقة ، وهي أفضل الأمم عند الله ﷻ كما قال النبي ﷺ .

وفي قول الراهب : « وإنكَ سَتُبْتَلَى » دلالة بينة أن كل من سلك طريق الإيمان وخصوصًا إذا كان داعيًا إليه لابد أن يبتلى ؟ وليس هذا من الرهب رجمًا بالغيب بل معرفة منه بالسنن الكونية والشرعية .

وليس الابتلاء خاصًا بأمة دون غيرها بل لكل المؤمنين في كل العصور ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت : ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ .
[البقرة : ٢١٤]

وقال النبي ﷺ : « **إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ ، وإنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُم ، فَمَنْ رَضِيَ فله الرِّضَا ومَنْ سَخِطَ فَله السَّخَطُ** »(١) .

قال عليه الصلاة والسلام : « **أَشَدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ ، ثُم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ** »(٢) .

وفائدة هذه المعرفة بوجود البلاء مهما كان نوعه بشدة أو برخاء أن يكون المؤمن على استعداد له وتوطين للنفس على الصبر والرضا وبُعدها عن اليأس عند وقوع البلاء ، فهي تعرف مقدمًا أن البلاء والأذى مرحلة من المراحل لابد أن تمر بها الدعوة والدعاة بل والمؤمنون بصفة عامة ، وعقبه يكون الفرج واليسر ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

وفيه أيضًا أنه ينبغي للمعلم أن يعلم تلامذته أن طريقهم ليس مفروشًا بالورود والرياحين ، بل هو طريق مفروش

(١) حديث حسن ، رواه الترمذي (٢٣٢٠) ، وابن ماجه (٤٠٢١) ، وأحمد (٢٢٥١٧-٢٢٥٢٥-٢٢٥٣٣) .

(٢) حديث صحيح ، رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤٠١٣-٤٠١٤) ، وأحمد (١٤٠٠-١٤١٢) والدارمي (٢٦٦٤) .

بالأشواك والآلام ، وإن كانت لذة القرب من الله ومحبته والشوق إلى لقائه ـ مع ما ينزله من صبر عند المصائب والبلايا ـ تجعل المؤمنين لا يشعرون بهذه الآلام والمحن بل ربما يستعذبونها في ذات الله ﷻ .

وقول الراهب : « **فإنِ ابْتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ** » قاعدة عظيمة في عدم طلب البلاء واستجلابِهِ بل في البعد عنه وسؤال الله العافية كما قال النبي ﷺ : « **لا تَتَمَنَّوْا لِقاءَ العَدُوِّ وسَلُوا اللهَ العافيةَ ، فإذا لَقِيتُمُوهُ فاصْبِرُوا ، واعْلَمُوا أنَّ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ** »[1] .

فهذا هو الأمر الشرعي الذي أمرنا به ، ووقوع البلاء أمر قدري كوني يجري علينا بغير طلبنا ، وإن كان الفرار من البلاء لا يعني أن يترك الإنسان الواجبات أو يفعل المحرمات مثل من قال الله فيهم : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا**

(١) رواه البخاري (٢٧٤٤-٦٦٩٦) ، ومسلم (٣٢٧٦) ، وأبو داود (٢٢٦١) ، والدارمي (٢٣٣٣) .

كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

[العنكبوت : ١٠-١١]

وأما التعرض للبلاء والاستهانة به فغرور مذموم ، فمن أَدْرَى هذا الطالبَ للبلاء الحريصَ على وقوعه به أنه يصبر عنده ، فهو في حقيقته تزكية للنفس وإحسان للظن بها ، وقد حذرنا القرآن من ذلك قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] .

ونحن نرى في هذا المقام أن الناسَ ثلاثُ فرق : طرفان ووسط ، فطرف في سبيل هروبه من المحنة يوالي أهل الباطل ويوافقهم ويتابعهم ويترك ما أوجبه الله عليه من مفارقتهم ومعاداتهم والقيام بالحق في وجوههم ، أو يفعل ما حرمه الله عليه من المعاصي طاعة لهم .

وطرف آخر يطلب البلاء بنفسه ويسعى إليه بعمله يظن أنه يربي نفسه ويهذبها ، وقد وقع ـ وهو لا يشعر ـ في شراك العُجْب والغرور ، وغاب عنه أن خليل الله عليه الصلاة

والسلام قال عن سارة إنها أخته ، وأن نبي الله موسى قال الله عنه : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾
[القصص : ٢١]

وهكذا أمر النبي ﷺ أمته سؤال الله العافية [١] ، وكلا هذين الطرفين مذموم .

والوسط هم أهل الحق والاتباع علموا بوقوع البلاء قدرًا ، والتزموا بعدم طلبه وتمنيه شرعًا ، وصبروا أعظم الصبر عند نزوله ، كما فعل هذا الراهب الصالح كما يأتي بيانه إن شاء الله .

وفي هذا القول أيضًا من الراهب استعمال الكتمان في بعض أمور الدعوة ، فليس كل شيء قابلًا للإعلان والنشر ، ولقد استعمل الرسول ﷺ الدعوة في السر مدة ثلاث سنين إلى أن تمكن من الجهر بها ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾
[غافر : ٢٨]

(١) قال رسول الله ﷺ : « يا عباسُ يا عمَّ رسولِ الله سلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة » ، رواه الترمذي (٣٤٣٦) وقال هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد (١٦٧٨) .

ولا شك أن الأصل في الدعوة الجهر ما أمكن ذلك ، ولكن قد يطرأ من بطش الطغاة وظلمهم ما يقتضي الإسرار بها إلى حين زوال خطر استئصال الدعوة .

وأيضًا يستعمل الكتمان بعد الجهر بالدعوة في المواطن التي يخشى الفتنة والحذر من إذاعتها ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ** ﴾ [النساء : ٨٣] ، فذم إذاعتهم للأخبار قبل ردها إلى الرسول ﷺ وأولي الأمر ، ولا شك أن هذه صفة من لم تهذبه التربية الإيمانية فلا يدري ما يعلن وما يسر ، وهذا النوع من أخطر الناس على الدعوة والدعاة معًا ، وخصوصًا إذا قيل لهم عن أمر إنه سر فيظل قلقًا حتى يبوح به فينتشر الخبر .

وقد رأينا في قصة موسى عليه السلام كيف كان الإسرائيلي المشاغب الغوي المبين سببًا في إفشاء سره حين قال : ﴿ **يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ** ﴾ [القصص : ١٩] ،

سمعها الفرعوني ولم يكن قد شهد وقعة القتل بالأمس غير موسى والإسرائيلي فذاع الخبر واضطر موسى للخروج من مصر فرارًا بنفسه ودينه .

فالواجب الرجوع إلى أهل العلم أولًا ـ كما أمر الله ـ قبل نشر أي أمر أو إذاعته ، وإن كان الأصل ـ كما سبق ـ في أمر البيان والدعوة أن يكون علنيًا ، إذ به يظهر الحق وتقوم الحجة ، ولا يلجأ إلى الكتمان إلا عند العجز أو الضرورة أو المصلحة الراجحة .

قوله ﷺ : « **وكان الغُلامُ يُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ويُداوِي الناسَ مِنْ سائِرِ الأدْوَاءِ** » .

الأكمه : هو من ولد أعمى وهذا أبعد عن الشفاء في الأغلب .

والبرص : مرض جلدي عضال لا شفاء منه إلى اليوم .

وهذا فيه كرامة أخرى لهذا الغلام ، وفيه أيضًا استعمال التداوي وهو هنا عن طريق الدعاء وطلب الشفاء من الله تعالى ، وليس في هذا منافاة للتوكل ولا للرضا بقضاء الله وقدره .

والطريق الثاني للتداوي هو التجربة والخبرة في الطب واستعمال الأدوية المباحة ، وقد تطبب النبي ﷺ في نفسه وطبب غيره وأمر بالتداوي فقال : « **نعَم يا عبادَ الله تداوَوْا** » [1] ، وأقل درجات ذلك الاستحباب وهذا هو الصحيح في المسألة .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٦١) ، وأبو داود (٣٣٥٧-٣٣٧٦) ، وابن ماجه (٤٣٢٧) ، وأحمد (١٧٧٢٦-١٧٧٢٧-١٧٧٢٨) ، وصححه الألباني (٧٩٣٤) صحيح الجامع .

أما من احتج على ترك التداوي بحديث النبي ﷺ في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم : « **لا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَتَطَيَّرُونَ ، ولا يَكْتَوُونَ ، وعلى رَبِّهِمَ يَتَوَكَّلُونَ** » [(١)] ـ في الصحيحين ـ فاحتجاجُه أخص من الدعوى .

نعني أن الحديث يدل على فضل ترك بعض أنواع الأدوية وهي : الاسترقاء والكَيّ وليس ذلك في كل أنواع التداوي ، فالأرجح أن التداوي مطلقًا هو الأفضل إلا ما كان من استرقاء وكَيّ فمكروه أو الأولى تركه ، وما كان من محرمٍ كتداوٍ بخمر أو خنزير فمحرم بلا ريب ، إذ إن الله لم يجعل شفاءنا في ما حرم علينا [(٢)] ، وأما ما كان حفظًا للحياة وجرت

(١) رواه البخاري (٥٢٧٠-٥٩٩١-٦٠٥٩) ، ومسلم (٣٢١-٣٢٣) ، والترمذي (٢٣٧٠) ، وأبو داود (٧٩٥) ، وأحمد (٢٨٠٠) .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « **إن الله خلق الداء والدواء فتداووا ولا تتداووا بحرام** » حسن ، وله شاهد من حديث أم سلمة أنها انتبذت فجاء رسول الله ﷺ والنبيذ يهدر فقال : « **ما هذا ؟** » ، قلت : فلانة اشتكت فوصف لها ، قالت : فدفعه برجله فكسره ، وقال : « **إن الله لم يجعل في حرام شفاء** » ، ويشهد له أيضا حديث : « **نهى عن الدواء الخبيث** » مخرج في المشكاة (٤٥٣٩) ، وعن ابن مسعود موقوفًا عليه : « **إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم** » وإسناده صحيح ، وأخرج الطبراني عن أبي الأحوص أن رجلًا أتى عبد الله فقال :
=

العادة بهلاك الإنسان إذا لم يستعمله كإيقاف نزف مثلًا فالظاهر أنه واجب لا يسع تركه .

وفي هذا الحديث أن طلب الدعاء من الصالحين مشروع وإن كان الأولى تركه في الأمور الدنيوية ، وإنما يكون مستحبًا في الأمور الدينية ، ولا ينقص من تمام التوكل المستحب كما مال إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : إن الأولى تركه إن لم يكن ينوي نفع الداعي بالثواب .

فالظاهر أن ذلك لا يشترط في الأمور الدينية وأمور الآخرة ، فعكاشة بن محصن ـ واحد من السبعين ألفًا الذين حققوا التوكل المستحب ويدخلون الجنة بغير حساب ـ قد سأل النبي ﷺ أن يدعو له أن يكون منهم فدعا له ولم ينكر عليه .

إن أخي مريض اشتكى بطنه وأنه نعت له الخمر أفأسقيه ، قال عبد الله : « سبحان الله ! ما جعل الله شفاءً في رجس ، إنما الشفاء في شيئين : العسل شفاء للناس ، والقرآن شفاء لما في الصدور » وإسناده صحيح ، انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٤/ ١٧٤) .

والمرأة التي كانت تصرع عندما طلبت من النبي ﷺ الدعاء لها في أمر الصرع استحب لها أن تصبر ولها الجنة ، ولما طلبت منه الدعاء في أمر التكشف دعا لها ولم يستحب لها أن تصبر على التكشف ، وذلك لأن الستر يحبه الله تعالى فهو حيي ستير يحب الستر .

قوله ﷺ : « **فَسَمِعَ جَلِيسٌ للملِكِ كان قد عَمِيَ فَأَتَاه بِهدايا كَثِيرةٍ فقالَ : ما هاهُنا لكَ أَجْمَعُ إنْ أنتَ شَفَيْتَني . فقال : إني لا أَشْفِي أَحَدًا إنما يَشْفِي اللهُ تعالى ، فإنْ أنتَ آمنْتَ بالله دعوتُ اللهَ فشفاكَ ، فآمَنَ بالله فشفاهُ اللهُ** » .

نرى في هذا الجزء من القصة طريقة تفكير أهل الدنيا والسلطان وما على الدعاة أن يعاملوهم به ، فجليس الملك من الطبقة المسماة بالعليا في المجتمع التي تزن الأمور كلها بميزان الدنيا ، يظن كل شيء في الدنيا يحصل عليه بالمال ، وأن كل الناس مثلهم يسعون إلى المال ويفرحون به ويرغبون فيه ويعطون ويمنعون من أجله ، فعندما سمع بالغلام ظنه كذلك ، فأتاه بالهدايا الكثيرة ورَغَّبه بقوله : « **مَا ههُنا لكَ أجْمَعُ إنْ أنْتَ شَفَيْتَني** » .

ولنتأمل قوله : « **أَجْمَعُ** » لنرى كيف تعظيمه للمال وشعوره بأنه كبير القدر عظيم الشأن ، وهذا حال أكثر الناس لا ميزان عندهم إلا بالمال ولا غنى عندهم إلا به ، ولقد قال رسول الله ﷺ : « **ليس الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ ، ولكنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** »[1] .

(١) رواه البخاري (٥٩٦٥) ، ومسلم (١٧٤١) ، والترمذي (٢٢٩٥) ، وابن ماجه =

فغنى النفس بالله هو الذي يسد فقر الآدمي وحاجته ، وأما غناه بأعراض الدنيا فهو الفقر بعينه .

ولننظر كيف لم يلتفت الغلام إلى الهدايا ولو بكلمة ، لا بمدح ولا بذم ولا بقبول ولا بترك ، فقد أسقط ذكرها بالكلية وشرع مباشرة في علاج الرجل من مرضه العضال الذي لا يشعر به وهو مرض القلب .

وهذا هو الواجب على الدعاة إلى الله أن لا يجعلوا للدنيا قيمة في دعوتهم ولابد لهم من هدم الميزان الفاسد وهو تعظيمُ مَنْ مَلَكها واحتقارُ مَنْ فَقَدها .

فالمجتمع الذي يريدون بناءه لا يقبل فيه هذا الميزان الذي ضلت بسببه الأمم قديمًا وحديثًا ، من عصر نوح عليه السلام إلى زماننا ، حيث قال قوم نوح له : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال هرقل لأبي سفيان : « وَسَأَلْتُكَ مَنْ يَتَّبِعُه : أَشْرَافُ النّاسِ أم ضُعَفَاؤُهم ؟ فَزَعَمْتَ أنْ ضُعَفَاؤُهم ، وَهُمْ أَتبَاعُ الرُسُلِ »[1] .

(٤١٢٧) ، وأحمد (٧٠١٥-٢٧٤٠-٧٨٢٧) .

(١) رواه البخاري (٢٧٢٢-٤١٨٨) ، ومسلم (٣٣٢٢) ، وأحمد (٢٢٥٢) .

وما أحسن قول الهروي في نعت الفقر : « أنه نفض اليد عن الدنيا ضبطًا أو طلبًا ، وإسكات اللسان عنها مدحًا أو ذمًّا والسلامة منها طلبًا أو تركًا » [1] .

فنفض اليدين منها ضبطًا بالنفقة منها في سبيل الله ، وطلبًا بعدم الحرص عليها والسعي لتحصيلها ، وإسكات اللسان عنها ذمًا أو مدحًا لسقوطها من القلب فلا تستحق الذكر ولو بالتحقير .

فإن الذم إنما يستعمل لتهوين فقدها على من فقدها ، ولو سقطت بالكلية لما ذكرها كما فعل هذا الغلام الصالح فلم يتكلّم فيها مطلقًا لتسقط أيضًا من عين جليس الملك الذي يراد أن ينضم للمجتمع الجديد ويزن بالميزان الجديد ، وهل نرى أحدًا يذم جناح بعوضة [2] ويقول مثلًا إنه لا يساوي شيئًا ؟ أم هل تجد من يقضي وقته في بيان نقص الجدي الأَسَكِّ [3] الميت

---

(١) راجع مدارج السالكين (م ١ ، فصل : الفقر) .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « لَو كَانتِ الدنيا تساوي عند اللهِ جَنَاحَ بعوضةٍ ما سَقَى كَافرًا مِنهَا شَربَة مَاء» رواه الترمذي (٢٣٢٠) .

(٣) الأسك : هو المقطوع الأذنين أو الصغير الأذنين .

وأنه لا يستحق أن يعمل من أجله أو يحرص عليه أو يبخل به ؟!

فلو كانت الدنيا عندنا كما هي عند رسول الله ﷺ في هذين التشبيهين جناح البعوضة والجدي الميت لما ذكرناها بمدح ولا ذم .

وأما السلامة منها طلبًا أو تركًا فالزهد في الزهد فيها .

فمن شهد أنه ترك شيئًا ذا قيمة أو أنه لم يطلبها وكان بإمكانه أن يطلبها ولكنه زهد فيها عامدًا ، فهي لا تزال ذات شأن في قلبه ولو سلم منها لما شعر أنه ترك شيئًا ، فهل يعود أحد منا إلى أهله ويقول لهم : كان أمامي بعوضة في الطريق أو دجاجة ميتة وتركتها وزهدت فيها وكان بوسعي أن آخذها ؟!

أم أنه لا يذكر هذا لأحد بل يستحي أن يقول ذلك أو يفكر فيه ، وهذا كله يدلنا على أننا مازلنا بحاجة إلى أن نسقط الدنيا من قلوبنا وعند من ندعوهم إلى الله كذلك .

ونلحظ أيضًا في هذا الجزء من الحديث أن عادة الناس

الغلو في الصالحين والتكلم عنهم بما لا يجوز ، فقالوا عن الغلام إنه يشفي ، والحق أنه إنما يداوي ويدعو الله سبحانه .

فلابد للداعي إلى الله أن يحذر من هذا ، وأن يعالج هذا المرض قبل أن يصل إلى حد تَأْلِيهِ الصالحين وعبادتهم من دون الله .

كما قال هذا الغلام ـ قبل أي كلمة مع جليس الملك ـ : « **إِنّي لا أَشْفِي أَحَدًا ، إنما يَشْفِي اللهُ تعالى** » .

فبدأ بتقرير التوحيد ومحاربة الغلو وبيان حقيقة عبوديته لله سبحانه وتعالى ، وكما قال النبي ﷺ : « **لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، إنما أنا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ الله وَرَسُولُه** » (1) ، وكما قال ﷺ : « **إِيَّاكُمْ والغُلُوَّ في الدين فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ في الدين** » (2) .

ولا يجوز للداعي أن يظن أنه يمكنه أن يستغل غلو الناس فيه في دعوتهم إلى الالتزام بالحق الذي يقوله لهم ، فإنهم إن

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر ﷺ ، وأحمد (١٤٩) .

(٢) رواه أحمد (١٧٥٤-٣٠٧٨) ، والنسائي (٣٠٠٧) ، وابن ماجه (٣٠٢٠) .

قبلوا الحق منه لأجله هو لا لأنه هو الحق لم ينفعهم ذلك ويوشكوا أن يتحولوا عنه إلى الباطل بمجرد غيابه هو عنهم ، فالحقيقة أنهم عبدوه ولم يعبدوا الله .

والواجب عليه أن يُعَبِّدهم لله وحده ، وما أعظم موقف أبي بكر ﷺ حين قال كلمته الخالدة عند وفاة رسول الله ﷺ : « مَنْ كان يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فإن محمدًا قد ماتَ ، وَمَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ »[1] وبهذا حفظ الله الإسلام واستمرت دعوة التوحيد .

ونلحظ أيضًا الفقه العظيم في الغلام في استغلال فرصة احتياج الناس إليه في أمور دنياهم ليوصل إليهم دعوة الحق ويسد احتياجهم الأشد إلى أمور دينهم وأخراهم ، ويجعل علاج أمراضهم الظاهرة ـ وهي التي يسعون لعلاجها والتخلص من ضررها ـ وسيلة لعلاج أمراضهم الباطنة ـ أمراض القلوب ـ ، وأعظمها خطرًا : الكفر والنفاق ، وهي التي لا يسعون لعلاجها ولا يشعرون بوجودها وضررها مع

(١) رواه البخاري (١١٦٥-٣٣٩٤-٤٠٩٧) ، وابن ماجه (١٦١٦) .

أنها أضر عليهم ، فعمى القلب أخطر من عمى البصر ، ومع ذلك فالناس إنما يبحثون عن علاج الأبصار ولا يبحثون عن علاج القلوب ، بل ربما ماتت القلوب ولم يبحث أصحابها عن طبيب في حياتهم ، وهل هناك وجه للمقارنة بين ضرر المرض الظاهر وهو إن استمر وأزمن أضر بالإنسان لحظات وساعات أو قل سنوات ، وبين ضرر المرض الباطن الذي إن لقي العبد ربه به أضر به في النار أبد الآبدين .

فالداعية الشفيق إذن يجعل حاجة الناس في دنياهم سلمًا للوصول إلى غايته في إصلاح أخراهم ، ويمكنه أن يشترط عليهم أن لا يقضي حاجتهم - التي إنما يقضيها الله لهم عن طريقه - إلا بأن يلتزموا بالإيمان والطاعة كما فعل هذا الغلام فقال : « **فَإِنْ أَنْتَ آمنْتَ بالله دعوتُ اللهَ فَشَفَاكَ** » .

ومثل أم سليم حين خطبها أبو طلحة وهو كافر فجعلت مهرها إسلامه فأسلم وتزوجته .

ولا يضر الناس - ولا الداعي - أن الناس إنما يستجيبون للحق أولًا لمصلحتهم الدنيوية ، فإنهم لن يمسوا إلا والحق

أحب إليهم من الدنيا وما فيها ، فإن أكثر الناس يعادون الحق لأنهم يجهلونه ، فإذا علموه زالت العداوة كما نرى في هذه القصة العظيمة .

فهذا جليس الملك الذي أسلم ليشفى من العمى فصار قدوة للعالم في الصبر والثبات والجهر بالحق والدعوة وتحمل أعظم الألم في سبيل الله .

وهذا أبو طلحة ﷺ أسلم مهرًا لأم سليم فكيف كان حسنُ إسلامه وبذلُه وعطاؤه في سبيل الله ، وهو من أفاضل الصحابة ﷺ .

ويمكن للداعي أن لا يشترط على المحتاجين الالتزام بالإيمان والطاعة قبل قضاء الحاجة بل يقضيها لهم مع دعوتهم إلى الحق دون اشتراط إذا رأى المصلحة في ذلك إظهارًا لكرمه وإحسانه ، وهذا في ذاته من أنجح وسائل الدعوة عند الكثيرين .

وفي قصة يوسف عليه السلام من ذلك مواقف عدة : منها موقفه مع صاحبيه في السجن فعندما سألاه تأويل الرؤيا ـ

وهم إنما يريدون معرفة وقت الخروج من السجن ـ عرفهم دعوة الحق والتوحيد أولًا ثم بين لهم تأويل رؤيا كل منهما .

ولم يشترط إخراجه من السجن قبل تأويل رؤيا الملك وهذا من عظيم صبره وزهده في الدنيا واستهانته بزخرفها وهذا عند المترفين من الناس من أكبر ما يؤثر في نفوسهم ويجعلهم يعيدون النظر في موازينهم .

فعلى كل داع إلى الله جعله الله في موضع حاجة الناس ، وجعله سببًا لحصول دنياهم أن يستغل مكانه في قضاء حاجتهم العظمى وفاقتهم الكبرى إلى ربهم وتوحيده وعبادته ومحبته .

قوله ﷺ : « **فآمَنَ بالله فَشَفَاه اللهُ** » .

بيان عاقبة الإيمان في الدنيا قبل الآخرة وأنها خير العاقبة ، وأن الله لا يريد بعبده المؤمن إلا خيرًا ، فهذا من عاجل بشرى المؤمن مع ما ينتظره عند الله في الآخرة .

وفي قوله : « **فَشَفَاه اللهُ** » بيان أن الشفاء من أفعال الله تعالى التي لابد أن يوحد بها ، فلا الطبيب ولا الدواء ولا الغذاء هو الذي يشفي بل الله وحده ، قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، وقال النبي ﷺ : « **اللهم أَذْهِب البَأْسَ رَبَّ الناسِ ، وَاشْفِ فَأَنْتَ الشّافِي لا شِفَاءَ إلا شِفاؤُكَ شفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا** » (١) .

وإن مما يقع الناس فيه عن اعتقاد ـ أو غير اعتقاد ـ أن يقولوا : شفاني الطبيب الفلاني أو الدواء الفلاني وهذا شرك ، فإن كان عن اعتقاد أنه شفاه من دون الله أو مع الله فهو شرك أكبر في الربوبية ، وإن كان من غير اعتقاد بل مع معرفة أن الله

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٨) وقال : حديث حسن ، وأبو داود (٣٣٨٥) ، وصححه الألباني .

هو الشافي فهو شرك لفظي وهو شرك أصغر محرم له حكم الكبائر .

واعلم أن من أسماء الله الحسنى الشافي ، وورد في الحديث الصحيح : « **اللهُ الطّبيبُ ..... طبيبُهَا الذي خَلَقَهَا** »[1] .

وقال أبوبكر ﷺ : « **الطّبِيبُ رَآني فقالَ : إنّي فَعَّالٌ لما أُريدُ** » وهذا في السياق الذي يُفهم منه المقصود فيه وأن الله وحده هو الذي بيده أمر الشفاء سبحانه .

(١) رواه أبوداود (٤٢٠٧) وأحمد (٤/ ١٦٣-٧٠٧٠) من حديث أبي رمثة ﷺ ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٥٧٣) .

قوله ﷺ : « **فَأَتَى الملِكَ فَجَلَس إليهِ كما كانَ يَجْلِسُ فقال له الملِكُ : مَنْ رَدَّ عليكَ بَصَرَكَ ؟ قالَ : ربّي . قالَ : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟!! قال : ربي وربُّكَ اللهُ . فأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حَتَى دَلَّ علَى الغُلامِ** » .

هنا وصلت الدعوة إلى مستوى رفيع وتغلغلت في المجتمع حتى وصلت إلى الملك وحاشيته ، وأصبح جليس الملك لسانًا في الطبقة الحاكمة قادرًا على الجهر بها وبيانها عن عقيدة وإيمان ، رغم ما يعلمه حتمًا من مخالفتها للدين الرسمي للدولة ، وما سوف يجره ذلك من تبعات .

*** وفي هذا من الفوائد :**

أن مجالسة الظالمين والكافرين إن كانت بغرض دعوتهم إلى الله ولا يكون ثمنها سكوتًا عن الحق أو معاونة للظلم والطغيان فلا بأس بها ولا حرمة فيها ، فلا يلزم كل من التزم بدعوة الحق أن يترك منصبه الذي تبوأه في جاهليته ما دام قد التزم بالشرط الذي ذكرنا فلا يكون أداة للظلم وسلاحًا للكفر والنفاق .

أما إذا كان لا يمكنه البقاء فيه إلا بالثمن الباهظ فعند ذلك نقول : قال رسول الله ﷺ : « **فَلَا يَكونَنَّ عَرِيفًا وَلَا شُرْطِيًّا وَلَا جَابِيًا وَلَا خَازِنًا** »[1] .

وهناك بعض الجهلة الذين لا يفرقون بين الموالاة المحرمة ومجرد المجالسة التي تفسح المجال لإبلاغ الحق ، أو الوظائف التي لا تعين على الظلم ، وإنما هي إجارة مباحة ، فضلًا عما قد يكون من قضاء حاجات الناس مما يسهم في الدعوة ، فيأمرون كل من التزم أن يترك وظيفته وهيأته وإلا لم يكن مؤمنًا وهذا لا شك في خطئه ومخالفته لأدلة الشرع .

ونرى هنا كيف حول الإيمان هذا الجليس من رجل لا يعرف إلا الدنيا والمال والهدايا التي قال عنها : « **مَا هَاهُنَا لكَ أَجْمَعُ إنْ أنْتَ شفَيْتَني** » وتعلقه بالخلق ورجائهم إلى هذه الشخصية الجديدة لتي تبدو فيها الطمأنينة والرسوخ والجرأة في الحق حتى يقول للملك في وجهه بكل ثبات : « **رَبِّي وربُّكَ**

---

(١) صححه ابن حبان ، وحسنه المنذري ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (ج١/٧٠١) .

الله» ، وهو على يقين من أن الملك الجبار يدعي الربوبية صراحة لا تلميحًا .

وهو بالتأكيد يعلم كم بطش الملك بالمظلومين ، وكم قتل وسفك الدماء وعذب الأبرياء ؛ حتى استقر له الملك الجائر ، وحتى لم يجد طيلة المدة التي قضاها يدعي الربوبية من يقول له لست لنا برب ، بل لعل جليس الملك ذاك كان ممن يروج لمقولته الفاجرة وادعائه الكاذب بالربوبية بل بالانفراد بها كعادة الحاشية والمقربين من كل ظالم مجرم .

فهكذا يهاجر الإيمان بالمؤمن من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده ومن الخوف من غير الله إلى الخوف من الله وحده ، ومن رجاء غير فضل الله إلى رجاء فضل الله وحده ، ومن ظلمة الجهل وموت الكفر وقسوة الشك إلى نور العلم وحياة الإيمان وراحة اليقين .

وفي تعذيب الملك له نرى الأسلوب القديم الجديد من أهل الباطل والكفر في مواجهة الحق ، فلا نقاش ولا حجة ولا دليل ولا حوار وإنما هو البطش والتنكيل ، فهل ترون

يا عباد الله ما بقي من ملك ذلك الملك وبطشه ؟ وهل ترون ما بقي من ملك فرعون وبطشه ؟

ولماذا نذهب بعيدًا فما بقي من مُلك من تسمى بملك الملوك شاهنشاه في زماننا [1] وما يبقى من ملك كل طاغية جبار ؟

الإجابة واحدة: لم يبق من ذلك كله إلا الأحاديث ، صدق الله إذ قال : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ [النساء : ١٩] وعن قريب يزول ملك طغاتكم أيها المعذبون ، وترحلون أنتم وهم إلى دار لا ظلم فيها ولا بخس ولا عدوان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وفي دلالة الجليس ـ وهو الرجل المؤمن الصادق الداعي إلى الله على الغلام ـ دليل على سقوط الإثم عن المعذب والمكره إذا دل على غيره من الدعاة أو الملتزمين الصادقين ، وإن كان ذلك سببًا لتعرضهم لما يتعرض له ، لكن التعذيب أشد من

---

(١) هذا لقب شاه إيران السابق محمد رضا بهلوي الذي مات بمصر مريضًا بالسرطان طريدًا مهينًا .

القتل ، فسنرى كيف صبر هذا الرجل على القتل نشرًا بالمناشير ولم يصبر عن الاعتراف على الغلام الذي علمه هذا الدين بسبب العذاب .

فلا يجوز أن يلام إنسان ناله من هذا العذاب شيء على ما قاله ولا ما أخبر به ، ولا يعد ذلك نقصًا في الإيمان ولا خللًا في التربية ، بل قائد هذه الدعوة في قصتنا الغلام الصالح - وهو من أولياء الله تعالى وكراماته ظاهرة لم يصبر على مثل التعذيب كما سيأتي - بل دل على الراهب وأخبر عنه ، فلا حرج على من أصابه شيء من ذلك ولا عتاب فقد سبقه فيه أولياء لله صالحون ، نسأل الله العافية .

وفي تسليط الله للملك الظالم الكافر مدعي الربوبية على تعذيب المؤمنين وتمكينه من ذلك دليل على أن حكمة الله سبحانه تتضمن مثل ذلك الابتلاء ، ولا يكون في هذا دليلٌ على سخط الله على أوليائه أو تركه لنصرتهم أو أنهم على باطل ولذا لم يُحفَظوا ، بل قد قدر الله على أنبيائه ورسله نحو ذلك من القتل والجراح .

قال تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٨٣] .

وقد جُرح النبي ﷺ في وجهه وكُسرت رباعيته في غزوة أُحُد وأنزل الله عليه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، فالحق يعرف بالأدلة لا بأن أهله معذبون مستضعفون ، والباطل يعرف بمخالفته الحق لا بأن أهله هم الغالبون ، فعن قريب يُمَكِّنُ المستضعف ويأمن الخائف ويجعلهم الله أئمة ويجعلهم الوارثين ، وعن قريب تذل أعناق الجبابرة ويزول ملك الطغاة ويزهق الله باطلهم ويجعلهم من الأسفلين .

وهذا الابتلاء تمحيص للقلوب وكفارة للذنوب وتخليص للصف المؤمن من أدعياء الالتزام ، وإن كان المؤمن ـ كما سبق ـ لا يطلبه ، ولا يسعى إليه ، ولكن يصبر عليه إن أصابه ـ والله المستعان ـ .

قوله ﷺ : « **فَجِيءَ بالغُلامِ فقالَ له الملِكُ : أيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِن سِحْرِكَ ما تُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرَصَ وتفْعَلُ وتَفْعَلُ . فقال : إني لا أَشْفِي أَحَدًا إنما يَشْفِي اللهُ تعالى . فأَخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتى دَلَّ على الراهِبِ** » .

علِم الملك أن الغلام وراء هذه الدعوة الجديدة على مملكته .... دعوة التوحيد وإنكار ربوبية الملك ، فماذا يفعل الطاغية لاحتواء هذه الدعوة ؟

إن بطشه بالغلام الذي أحبه الناس وعرفوا إحسانه إليهم ، وأنه هو الذي قتل الدابة ، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويداويهم من سائر الأدواء سوف يزيد من محبته ويجعله بطلًا أو شهيدًا ، ويصبح موته وقودًا دافعًا لاستمرار دعوته ، فلابد من محاولة الاستمالة أولًا ، فهو يعرف جيدًا حقيقة دعوة الغلام ، وأنها تهدف إلى تحقيق العبودية لله وحده ونبذ عبودية الملك ومع ذلك يقول له : « **أيْ بُنَيَّ** » .

والنداء بالبنوة أول محاولات الاستمالة والتلطف فهو يقول له أنت ابني وأنا الذي توليت تربيتك ، ثم يقول له :

« قد بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ ما تُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وتفعَلُ وتفعَلُ » .

فهو يريد أن يقول له لا مانع عندي من استمرارك فيما تفعل بشرط أن تقول للناس إن هذا سحر تعلمته في مدرسة الملك ، وأن ما تدعو إليه هو بتوجيهات الملك وتحت إشرافه وبرعايته ، وهو يقول له ذلك وهو على يقين من أنه هو الذي قال لجليسه ولغيره : « ربي وربُّكَ اللهُ » وأنه سبحانه يشفي الناس .

فهذه المحاولة الخبيثة لطمس ضوء الدعوة ونورها ، إذا قبل أصحابها أن يلبسوا ثوب الباطل ويعملوا تحت رايته ويُصْبَغُوا بصبغة الشرعية في عرف الملك والمجتمع .

إن الدعوة إلى الله لابد أن تتميز في سرها وعلانيتها ، في جنودها وقيادتها ، في مبادئها وغاياتها ، وفي وسائلها ومنهجها عن كل أحزاب الباطل ، وهي لابد أن ترفض هذا الطعم الخبيث والشرك المخادع الذي يضعه لها أعداؤها حين يقولون للدعاة : إن أردتم أن تعملوا فلا مانع ما دام عملكم تحت توجيهات الملك وبأمره وأن تضعوا شعاراته وتدخلوا في

أحزابه ، وإن كنا نعلم أن دعوتكم مخالفة لهذا وأنكم تدعون إلى الله لا إلى سحر الملك ولكن هذا هو الثمن لاستمرار دعوتكم .

ما أخطر هذا المنهج الذي يمارسه المنافقون والكافرون في كل زمان لاحتواء الدعوة تحت سلطانهم .

فكم رأيناهم وهم يرفضون التواجد الشرعي كما يزعمون لتجمعات الدعوة إلا تحت شعارات العلمانية والديمقراطية ومن خلال أحزابها .

وهم يعلمون جيدًا أن هؤلاء الدعاة هم الدعاة وأنهم لن يغيروا حقيقتهم ، ولكنهم قبلوهم ضمن أحزاب الملك وفي ثياب الملك وتحت شعارات الملك ؛ وذلك لعلمهم أن هذا في الحقيقة يدعم شرعيتهم المزعومة ، ويجعل منكرهم هو المعروف الذي يتحاكم إليه ويجعل قيادتهم الباطلة للمجتمع أمرًا شرعيًا عند أتباع الدعوة وليس فقط أمرًا واقعًا يسعون إلى تغييره .

ويجعل شعاراتهم المرفوضة في شرع الله من « ديمقراطية »

و« علمانية » و « وطنية » و « مساواة الملل والأديان » وغيرها من الشعارات التي هي من سحر البيان ؛ الذي يقلب الحق باطلًا والباطل حقًا ، يجعلها مرادفة لشعارات الإيمان والتوحيد من أن الحكم لله لا للناس ، وأن الدين هو حياة الناس كلها لا يفصل عنها ولا عن جزء منها تمامًا ، كما أنه هو آخرتهم وأن الولاء لله والحب فيه ومن أجله .

وأن الرابطة الدينية الإسلامية هي رابطة المجتمع لا مجرد وحدة الوطن أو القوم أو القبيلة ، وأن الإسلام وحده هو الحق وأن ما سواه من الملل باطل وكفر وعذاب في الدنيا والآخرة ـ هذه المعاني الأساسية التي لا تقوم الدعوة بدونها ولا تكون أبدًا ربانية إذا فقدتها ـ سوف تضمحل تمامًا عند قبول هذا الاحتواء وعند رضا أصحاب الدعوة بإعلان الشعارات « الملكية » السحرية ثمنًا لسلامة الدعاة واستمرار عملهم في أمان .

إن قبول الاتجاه الإسلامي للدخول في أحزاب الضلال تحت وَهْمِ أننا فقط نقول كلامًا على ورق و نقبل شعارات لا

نطبقها ولا نعمل بها يفقده تميزه وإخلاصه وتجرده لله سبحانه .

ما أخطر أن يكون الدعاة إلى الله هم الذين يقولون للناس « اختاروا القيادة الكافرة » و« انتخبوا الرياسة المنافقة » ، و« نحن نرضى لكم فلانًا ملكًا أو رئيسًا » ، وهم يعلمون حقيقته ، إنه ثمن غال ، غال للسلامة المظنونة التي لا تستمر .

فلابد للدعاة أن يعلموا أن استمرار دعوتهم بالله لا بالناس وأن الله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين .

وإن علينا أن نقولها واضحة كما قالها الغلام للملك رافضًا محاولة الاحتواء الخبيث « **إني لا أَشْفي أَحَدًا إنما يَشْفِي اللهُ تعالى** » لابد أن نقول للباطل : لا نعمل تحت رايتك ولا نرضى بثيابك ولا نقبل قيادتك ولا نعترف برياستك ، وإن كان واقع الابتلاء يفرضها علينا ، وأن نلتزم الشرع ونفوض أمر الكون لله يفعل فيه ما يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .

وليعلم الدعاة أن دعوتهم تستمد شرعيتها ووجودها من إذن الله وأمره بالدعوة ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥-٤٦] ، وهم ورثة الأنبياء بما عندهم من العلم والعمل ، فالعلماء ورثة الأنبياء ؛ ولذا فدعوتهم لا تحتاج إلى إذن من الطواغيت ولا إلى شرعيتهم فإنها شرعية الظلم والكفر والعدوان ، وشرعة الغاب التي ابتدعوها ، ثم هم لا يحترمونها ولا يرعونها حق رعايتها .

إن معاني الولاء لله سبحانه ولرسوله ﷺ والمؤمنين والانتماء لدين الله دون ما سواه أمر أساسي في الدعوة إلى الله ، والبراءة من الشرك والمشركين من أوجب الواجبات قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة : ١] .

وقال : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فهذه المعاني كلها تفقد وتضيع أو تبهت وتضمحل في نفوس الأتباع إذا قبل أصحاب الدعوة « القيادة الملكية » و« الشرعية الملكية » ولم يكتفوا « بالشرعية الإلهية » و « القيادة النبوية » ، ومن ثم تتحول الدعوة بعد جيل أو أجيال إلى صورة من صور الباطل لكن أصحابها يحملون اسم الدين ويتصورون أنفسهم دعاة الحق وحماة الإسلام ، فلنحذر جميعًا ـ نحن دعاة الإسلام ـ من شرك النفاق وهيآته وبرلمانه وأحزابه ولنحافظ على صبغة دعوتنا الربانية ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

رفض الغلام إذن أن يسمي ما يفعله سحرًا ، وأبى إلا أن يجابه الملك بأن دعوته هي دعوة التوحيد الخالص بمقولته العظيمة : « **إني لا أَشْفي أَحَدًا إنما يشْفِي اللهُ تعالى** » ، وفشلت محاولة الاحتواء وإلباس الدعوة ملابس الجاهلية ؛ فانكشف الملك على حقيقته ولجأ إلى الأسلوب المعتاد : البطش

والتنكيل ، فمنذ لحظة كان الغلام « بُنَيَّه » الذي يتلطف معه ، فإذا هو الآن يقع تحت أنواع التعذيب ؛ ليعترف على إخوانه في هذا « التنظيم السري » الذي يهدف إلى قلب « نظام الحكم » في المملكة ويتبرأ من ربوبية الملك ، فلنعلم أن الباطل لا يستحيي من تناقضه ، فهذا الذي تراه في نعومة حديثه وإظهار مودته ومحبته للدعوة ومباركته للدعوة سوف ينقض عليك هو شخصيًا بأنواع التنكيل إذا واجهته بالمفارقة والمفاصلة .

ولتعلم أيها الداعي أن الموقف لا يحتمل منك غير الوضوح والبيان ، فعنك تؤخذ الحقيقة ومن فمك وبكلماتك يعرف الناس الدين ، فاحذر أن تكذب على الله وتُدْخِلَ في دينه - وأنت المتحدث باسمه في دعوته - ما ليس منه بل ما هو من دين الشيطان وملة أتباعه ، ولا تظن أن تسليط العدو عليك بأنواع الأذى هو من فقدان ولاية الله أو علامة سخطه ، بل هذا الغلام ولي من أولياء الله بنص السنة قد سلط الله عليه عدوه حتى وصل التعذيب به إلى درجة أن اعترف على أستاذه ومعلمه الذي قال له يومًا : « **فإن ابتُلِيتَ فلا تَدُلَّ عَلَيَّ** » .

عجز الغلام وأكره على الإخبار باسم مربيه ، وهو في ذلك معذور لا إثم عليه قال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

[النحل : ١٠٦]

وليس الاعتراف على إخوانه في الدين عند تعرضه لمثل هذا العذاب ـ وإن كان يعلم أنه يصيبهم الأذى ـ بداخل فيما لا يجوز عند الإكراه من أذية مسلم أو معصوم ؛ فإن ما أجمع عليه العلماء من أن الإكراه لا يبيح قتل مسلم أو معصوم أو انتهاك حرمته (نقله القرطبي وغيره) ، إنما هو في مباشرة ذلك لا في مجرد الإخبار عن حقيقة معتقد أخيه ودينه وعمله الذي قد يكون سببًا لقتله عند الكفار أو الظالمين ، وهذا الحديث يدل على ذلك كما سبق بيانه .

ولنتأمل في حكمة الله الذي استجاب دعوة الغلام في كل ما سبق ، كيف قدر عليه هذا البلاء دون أن يصرفه عنه .

فإما أنه صرفه عن الدعاء برفع هذا العذاب ؛ ليتم الابتلاء

وترفع الدرجات وتكفر السيئات ويكمل التمحيص ، ويعرف الناس القدوة الصالحة في الثبات على الدين ، وليس في الإخبار عن الراهب نقص في الدين ؛ لأن ذلك من الرُخَص ـ كما ذكرنا ـ وإن كان الأفضل الصبر على العزيمة .

وإما أن الله تعالى لم يستجب دعوة الغلام ؛ حتى نعلم أنه ليس لأحد مع الله في الأمر شيء ، كما قال الله لنبيه ﷺ وأفضل الخلق وخليله وسيد الناس محمد ﷺ عندما جرح في وجهه وكسرت رباعيته يوم أحد ، فقال : « **كيفَ يُفْلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهم وكَسَروا رُبَاعِيَّتَه** »[1] فأنزل الله : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

وأنا إلى الأول أميل وهو أن الغلام صرف عن الدعاء برفع هذا العذاب ، وذلك أن رسول الله ﷺ لم يذكر في الحديث أن الغلام دعا ولم يستجب الله دعاءه ، والله أعلم أي ذلك كان .

---

(١) بوب عليه البخاري ، رواه مسلم (٣٣٤٦) ، وأحمد (١٣١٦٤) .

قوله ﷺ : « **فَجِيءَ بالراهِبِ فقيلَ له : ارْجِعْ عن دِينِكَ فأَبَى ، فَدَعا بالمِنشارِ فوَضَعَ المِنشارَ في مَفرِقِ رأسِه فَشَقَّه حتى وَقَعَ شِقّاه** » .

وصل جنود الملك إلى مصدر الدعوة والرأس المدبر لهذه الدعوة ، فكان لابد من رجوعه عن الدين الجديد ؛ حتى يرجع من اتبعه عنه ومنهم الغلام وجليس الملك ، فأمر بالرجوع دون مواربة ودون تلطف كالذي تم مع الغلام .

وهذا لأن هذا الرجل ليس بمشهور لدى الناس فلن يكون لقتله نفس القدر من الإنكار لدى العامة لقتل الغلام ولذا لم يحاول معه مثلما حاول مع الغلام لاحتوائه .

فيا من وقف للناس علانية ليتكلم باسم الدين أي مسئولية كبرى في عنقك في إيضاح الحق وعدم كتمان شيء منه ؟

قتل الملك الظالم الأستاذ الأول لدعوة التوحيد في هذا المجتمع بأشنع قتلة ولم يشعر بذلك ولم يتحرك أحد ؛ لأن دعوته لم تكن علنية بل كانت في السر لفرد واحد ، وربما أفراد لم يذكروا في القصة والله أعلم ، وكان الأمر أمام الغلام إرهابًا

وإرعابًا فالمهم أن يرجع هو أمام الناس علانية كما دعاهم إلى التوحيد علانية ، فهذا الخطر يا دعاة الحق إن أنتم داهنتم أو لبّستم الحق بالباطل ونعوذ بالله من الخذلان .

ولنتأمل صبر هذا الراهب العابد على هذه القتلة الفظيعة النشر بالمنشار حتى ينفصل إلى قطعتين ، وذلك مصداق ما قال النبي ﷺ حين قال له أصحابه : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « **قد كان مَنْ قَبْلَكُم يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ فيُجْعَلُ فيها ، ثم يُؤتَى بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَينِ ، ويُمَشَّطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِه وعظْمِه ما يَصُدُّه ذلِكَ عن دينِه ، والله ليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إلى حَضَرَمَوْتَ لا يخافُ إلا اللهَ والذِئبَ على غنَمِه ولكنكم تسْتَعْجِلُونَ** » [1] .

وإذا تذكرنا أن الراهب في بداية الأمر طلب من الغلام إن ابتلي أن لا يدل عليه علمنا ما يلزم أن يكون عليه حال المؤمن الصادق وأنه لا يسأل الله البلاء ولا يتمنى وقوعه بل يسأل الله

---

(١) رواه البخاري من حديث خباب بن الأرت ﷺ ، (٦٩٤٣) .

العافية ويأخذ بأسبابها ، فإذا نزل البلاء كان عند ذلك رجلًا صابرًا محتسبًا يهون عليه عذاب الدنيا ولا يفرط أبدًا في دينه .

فإن قيل : ألم يكن يسع الراهب وهو يكره على الكفر بمثل هذه القتلة الفظيعة أن يأخذ بالرخصة ويوافق ظاهرًا على الرجوع عن دينه مع طمأنينة القلب بالإيمان ؟

فالجواب من وجهين :

الأول : أن الأخذ بالعزيمة أفضل باتفاق العلماء .

الثاني : أن الإكراه عذر يخص أهل الإسلام وأما الأمم السابقة فلم يكن الإكراه عذرًا لهم في إظهار الموافقة على الكفر ، كما قاله بعض أهل العلم احتجاجًا بمفهوم قوله ﷺ : « **إنَّ اللهَ وَضَعَ عَن أُمتي الخطأَ والنسيَانَ وما استُكرِهوا عَليه** »[1] .

فهو يدل على أن غير أمته لم يوضع عنها ذلك ، والأول أظهر ، فإن موسى ﷺ قال للخضِر : ﴿ **لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا** ﴾ [الكهف : ٧٣] فلم يؤاخذه ، والله أولى بعدم المؤاخذة والله أعلم .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٣٣-٢٠٣٥) ، وصححه الألباني .

مسائل تتعلق بالإكراه

* **أولًا : شروط الإكراه** : ذكر ابن حجر في « الفتح » [1] شروطًا أربعة :

الأول : أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به ، والمأمور عاجزًا عن الدفع ، ولو بالفرار .

الثاني : أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك .

الثالث : أن يكون ما هدد به فوريًا ، فلو قال : إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا . لا يُعد مكرهًا ، ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًا أو جرت العادة بأنه لا يخلف .

الرابع : أن لا يظهر من المأمور به ما يدل على اختياره . أ هـ

* **ثانيًا : على أي شيء يصح الإكراه** ؟ قال القرطبي رحمه الله : « أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره ، أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره ، ويصبر على البلاء الذي نزل به ، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره ، ويسأل

(١) المجلد ١٢ ، كتاب : الإكراه .

الله العافية في الدنيا والآخرة » .

وقال ـ أيضًا ـ : « ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الرخصة إنما جاءت في القول ، وأما في الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوه على السجود لغير الله ، أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مسلم أو ضربه ، أو أكل ماله ، أو الزنى ، وشرب الخمر ، وأكل الربا .

وإذا قيل للأسير : اسجد لهذا الصنم وإلا قتلناك .

فقال : إن كان الصنم مقابل للقبلة فليسجد ، ويكون نيته لله تعالى وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه .

والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة وما أحراه بالسجود حينئذ .

ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، ويوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة [1] ، فإذا كان هذا

(١) رواه البخاري (١٠٠٠) ، ومسلم (٧٠٠) .

مباحًا في السفر حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا ؟

وقالت طائفة : الإكراه في الفعل والقول سواء ، إذا أَسَرَّ الإيمان ، روي ذلك عن عمر بن الخطاب ، ومكحول ، وهو قول مالك ، وطائفة من أهل العراق » .أهـ باختصار .

* **ثالثًا** : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره عليه ، فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها ، فإن أحمد قد نص في غير موضع : أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد ، ولا يكون الكلام إكراهًا » أهـ .

قوله ﷺ : « ثم جيءَ بجليسِ الملِكِ فقِيلَ له : ارْجِعْ عن دينِكَ ، فَأَبى ، فَوَضَعَ المِنشارَ في مفرِقِ رأسِه فشَقَّه به حتى وَقَعَ شِقَّاه » .

ما أعظم الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، هذا جليس الملك الرجل المترف المنعم من طبقة الحاشية المقربة ، ومعلوم كيف تعيش حياة اللهو واللعب ، كيف صبر هذا الصبر العظيم حفاظًا على دينه ؟!

إن الراهب عاش عمره كله على هذا الدين ، فليس بغريب أن يضحي في سبيله بحياته ، ولكن هذا الرجل الذي قضى أكثر عمره في الكفر ولم يدخل الإيمان قلبه إلا قبل قليل ، ومع ذلك فقد صبر مثل صبر ذلك الراهب ولا عجب ؛ فهؤلاء سحرة فرعون كانوا أول النهار سحرة يبحثون عن الأجر إن كانوا هم الغالبين ، وآخر النهار بعد إيمانهم قالوا قولتهم الخالدة : ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه : ٧٢] وكانوا شهداء بررة .

وهكذا ذهب الراهب وجليس الملك شهداء في سبيل الله صبرًا على التمسك بالدين فأعطاهم الله الحياة عنده ـ سبحانه ـ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

قوله ﷺ : « ثم جِيءَ بالغُلامِ فقيلَ له : ارْجِعْ عنْ دينِكَ . فأَبَى فدَفَعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه فقال : اذْهَبُوا به إلى جَبَلِ كذا وكذا فاصْعَدوا به الجبَلَ فإذا بلغْتُم ذِرْوَتَه فإن رَجَعَ عن دِينِه وإلا فاطْرَحُوهُ . فَذَهَبوا به فَصَعِدوا به الجبَلَ فقالَ : اللهُمَّ اكْفِنِيهم بما شِئْتَ . فَرَجَفَ بهم الجبلُ فسَقَطُوا وجاءَ يمْشِي إلى الملِكِ ، فقال الملِكُ : ما فَعَلَ أصحابُكَ ؟ قال : كفانِيهِمُ اللهُ تعالى » .

كان الملك حريصًا أعظم الحرص على أن يرجع الغلام عن الدين أكثر من حرصه على رجوع الراهب ؛ لأن الغلام هو الذي أظهر الدعوة ، وارتباط الدعوة به عند الناس أظهر وأوضح ، والناس كلها تنظر إليه ماذا يصنع ؟

ورجوعه عن دينه رجوع لكل أتباعه ومحبيه ، فلم يقتله بالطريقة التي قُتِلَ بها صاحباه ـ الراهب والجليس ـ ، ولكن أراد طريقة فيها تطويل لزمن الاستعداد للقتل لعل ذلك أن يكون دافعًا له في إعادة التفكير ، فهو يطول عليه مدة الإرهاب والتخويف بالصعود إلى الجبل ، وهو يطلب إليه

الرجوع عن الدين وهو يزداد صعودًا في الجبل حتى يبلغ الذروة .

وهذا بلا شك ضغط نفسي طويل الأمد ولكن هيهات ، إن النفس المطمئنة بالإيمان لا تعبأ بمثل ذلك ، والقلب الساكن بذكر الله لا يخاف من أحد دون الله ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] .

فالغلام مع ضعف قوته وكثرة عدد عدوه وقوتهم قد فوض أمره إلى الله ودعاه بهذا الدعاء العظيم : « **اللهم اكفِنيهِمْ بِما شِئْتَ** » كم جرب هذا الدعاء الصالحون فكفاهم الله أمر عدوهم .

وتأمل طمأنينته وسكونه وحسن توكله على الله وتضرعه إليه ، وتفكر كيف لم يشغل نفسه بكيف ومتى وبأي وسيلة يكون الإنقاذ والنجاة بل قال : « **بما شئتَ** » وهكذا يكون حسن الظن بالله والثقة به ، فيثمر ذلك صدق التوكل عليه ، واللجوء إليه ، فتأتي النتائج على خير ما يرجوه المرء وفوق ما يرجوه .

ولنتدبر كيف جعل الله هلاك أصحاب الملك من جنس عملهم الذي أرادوا بالغلام المؤمن حيث أرادوا إسقاطه من الجبل فأسقطهم الله ﷻ من الجبل فهلكوا ، حدث زلزال في الجبل ولحظة الزلزلة يظهر فيها العجز البشري كاملًا ويظهر أن ملوك الأرض ورؤساءها ليسوا بملوك لها ولا برؤساء إنما هم عبيد ضعفاء ترتعد فرائصهم خوفًا ويجْزُون هلعًا .

ألا نذكر حين وقعت الزلزلة [1] ببلادنا منذ سنين كيف جرى الناس كلهم من بيوتهم ، غنيهم وفقيرهم ، صغيرهم وكبيرهم ، نسوا مراكزهم وتركوا منازلهم ، مات منهم من مات ، قدر الله موتهم دون فرق بين عظيم وحقير ، أو رئيس ومرؤوس ، أو آمر ومأمور .

لحظة يكون الملك فيها ظاهرًا كيوم القيامة ، وإن كان الملك لله كل لحظة ، لكن أكثر الخلق في غفلة عن ذلك .

عندما رجف الجبل قدر الله هلاك أصحاب الملك ، ونجاة الغلام فهل وجدها فرصة للهرب ، والتخلص من

---

(١) زلزال أكتوبر ١٩٩٢م ، ولنذكر أيضًا ما حدث في تسونامي وفي الولايات المتحدة .

جبروت الملك وطغيانه وقد كفاه ما قدمه ؟

لا . ليس هذا سلوك الداعية الحريص على هداية الخلق ودخولهم في الدين .

كم بقي في أرجاء المملكة من لم تبلغه الدعوة ؟ أو لم ير دلائل صدق أصحابه وأنهم أصحاب الحق ، من أجل هذا رجع الغلام يمشي إلى الملك .

ولك أن تتصور كم كانت دهشة الملك وهو يرى الغلام الصغير حيًا يمشي إليه ، وقد ذهب الأصحاب من الجنود الأشداء الأوفياء لملكهم إلى غير رجعة ، فيسأل الغلام متعجبًا : « **ما فَعَلَ أصحابُك ؟!** » .

فيقول الغلام الذي لا يعبأ كثيرًا بالوسائل والكيفيات : « **كفَانِيهِمُ اللهُ تعالى** » .

فلم يخبره بما جرى ، ولم يجعل ما حدث من كرامة جديدة مادة للحديث حوله ، بل يجابه الملك مرة أخرى بما يقض مضجعه ويزلزل ادعاءه الربوبية ؛ بأن الله ربه إلهه قد كفاه إياهم ؛ ليكون ذلك مزيدًا من الحجة على ذلك الملك المغرور

المتكبر الذي لو عقل وفكر وتدبر ما حدث ؛ لعلم أن الغلام محفوظ منه ، وأنه لا سبيل له إليه ، فيعلم إذن حقيقة عجزه ، ويتوب إلى ربه ، ولكن القلب إذا عمي وطبع عليه فما تغني عنه النذر ؟ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦-٩٧] .

فَفَكَّرَ المغرورُ في حيلة أخرى .

قوله ﷺ : « **فَدَفَعَه إلى نَفَرٍ من أصْحَابِه فقال : اذهَبُوا به فاحْمِلُوه في قُرْقُورٍ (أي سفينة) وتَوَسَّطُوا به البحرَ فإن رَجَعَ عن دينِه وإلا فاقْذِفُوه فذهَبُوا به فقال : اللهم اكْفِنِيهِم بما شِئتَ ، فانكفَأَتْ بهم السفينةُ فغرِقُوا ، وجاءَ يمْشِي إلى الملِكِ ، فقال ما فعلَ أصحابُكَ ؟ قال : كفانِيهِمُ اللهُ تعالى** » .

ظن هذا الملك الجاهل أن مُلك رب الغلام ربما كان مقتصرًا على البر ، فليبتعد عن البر إلى البحر ، وبنفس الوسيلة في محاولة إرجاع الغلام عن دينه بتطويل مدة الاستعداد للقتل ، حتى يتوسطوا البحر مع استمرار التهديد بأن يقذف وسط الأمواج التي لا يمكن لأحد أن ينجو منها في ظنهم .

ونرى هنا نفس الطمأنينة والسكون ، والتضرع إلى الله وحده ، وحسن الظن به والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه ، فيقول الغلام : « **اللهم اكْفِنِيهِم بما شِئتَ** » فتنقلب السفينة ، ولحظات الغرق والضر في البحر يظهر فيها أيضًا العجز البشري كاملًا ، ويظهر فقر الإنسان وحاجته وضعفه ، قال ﷻ : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا

نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] .

ألا نتذكر اللحظات التي قضاها أصحاب السفينة (١) التي غرقت منذ سنين ، ولقد حدثني أحد من كانوا على ظهرها وكتب الله له النجاة أنهم كانوا لحظة بداية غرق السفينة أكثرهم ينظرون إلى الجهاز الخبيث المدمر « الفيديو » ويلعبون ويمرحون ، فإذا بهم والماء قد دخل عليهم فلم يكن منهم إلا كلمة واحدة يا رب يا رب .

فسبحان الله !!! كم هو ضعيف وعاجز ذلك الإنسان لحظات الضر في البحر ، لا سلطان للبشر ، ولا أوامر للملوك ، ولا قوة للرؤساء ، يغرق مَن أمر اللهُ الواحدُ القهارُ بغرقه ، وينجو مَن أمر اللهُ الرحيم الغفارُ بنجاته .

غرقت سفينة أصحاب الملك ، وغرقوا جميعًا ، والجزاء من جنس العمل ، أرادوا أن يغرقوا الغلام ، فغرقوا هم ،

(١) المقصودة هنا باخرة سالم اكسبريس التي غرقت في البحر الأحمر سنة (١٩٩٢م) وغرق أكثر من كان عليها ، ثم بعد ذلك حدثت مأساة السفينة السلام ٩٨ التي غرقت في (٢٠٠٦م) .

ونجَّى اللهُ الغلام ، والحمد لله رب العالمين .

ورجع الغلام يمشي إلى الملك استكمالًا لدعوته ، فازدادت دهشة الجاهل الغبي الذي لا يبصر أوضح الحقائق فيسأله ما فعل أصحابك ؟ فيقول : « **كفَانِيهم اللهُ تعالى** » .

قوله ﷺ : « **فقال للملِكِ : إنكَ لسْتَ بقاتِلِي حتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ به . قال : وما هو . قال : تَجْمَعُ الناسَ في صَعيدٍ واحِدٍ وتَصْلُبُني على جِذْعٍ ، ثم خُذْ سَهْمًا مِن كِنانَتي ، ثم ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ، ثم قُل : بسمِ اللهِ رَبِ الغُلامِ ، ثم ارْمِني فإنك إذا فعلتَ ذلِكَ قَتَلْتَني** » .

وصلت حيل الملك إلى طريق مسدود ، وفشل في تحقيق أيٍ من أغراضه ، فلا الغلام رجع عن دينه ، ولا استطاع قتله ، ولا حتى تركه الغلام حرًا في مملكته يفعل في أهلها ما يشاء وفر بنفسه وترك الدعوة ، بل عاد ليستمر فيها ، وبدأت صورة ملكه تهتز ، وظهر بوضوح عجزه عن إيقاف السيل الجارف لدعوة الإيمان ، ومع كل هذا فلا يزال العناد مسيطرًا على فكره ، فهو يريد الوصول إلى قتل الغلام بأي صورة .

فيقول له الغلام : « **إنكَ لسْتَ بقاتِلِي حَتى تَفْعَلَ ما آمُرُكَ بِهِ** » وهذا الخبر من جملة كرامات الغلام فإنه أخبر عن استمرار عجز الملك في المستقبل عن قتله إلا بفعل ما يأمره به وهذا نوع من الكشف والإلهام .

وقد سبق أن بينا أن إثبات هذا من عقيدة أهل السنة والجماعة ، إلا أنه في حق الولي يحتمل الخطأ والصواب ؛ لأنه غير معصوم ، وفي حق النبي وحي قاطع لثبوت العصمة .

وتأمل قول الغلام للملك : « **حتى تفْعَلَ ما آمُرُكَ به** » والغلام هو الذي يأمر ، والملك هو الذي يسأل عن تفاصيل الأمر ليطبقه ، فأي إهانة له أكثر من ذلك ، وأي بطلان لدعواه الربوبية أوضح من ذلك فهو عاجز لا يقدر ، جاهل لا يعلم ، مأمور بأمر غَيره لا يستطيع أن يأمر ، وهكذا كل من ادعى الربوبية أو شيئًا من صفات الربوبية أو الإلهية فلابد له من مثل هذه الفضيحة .

وكانت همة الغلام منصرفة إلى أن تصل دعوة الحق لجميع أهل المملكة ، وأن تظهر أمامهم جميعًا أدلة صدق دعوة التوحيد ، فقوله للملك : « **تَجْمَعُ الناسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ** » ـ وهو الأرض المنبسطة ـ ليرى الجميع حقيقة ما يقع ويعلموا حقيقة كل فريق : فريق الملك وفريق الغلام ، فريق الكفر والظلم والطغيان وفريق الخير والعدل والإيمان ، كما قال

موسى عليه السلام لفرعون لتحقيق نفس الغرض : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] .

وقول الغلام للملك : « وتَصْلُبُني على جِذْعٍ » ليظهر للجميع الظلم الواقع على الغلام بدون جريمة ارتكبها إلا أن يقول ربي الله .

وهذا بالتأكيد من أسباب ميل الناس إليه وتعاطفهم معه ومع دعوته ، فقد فطر الله العباد على كراهية الظلم وعداوته ، والميل إلى المظلوم ومناصرته .

فإذا أضيف إلى ذلك أنهم يعلمون عن المظلوم حبه للخير وحرصه على الإحسان إلى الناس ، وجربوه من قبل في قضاء حوائجهم ، وكونه كان دائمًا مستشعرًا لمشاكلهم ، في حين غابت مشاكلهم عن الملك وحاشيته ، بداية من الدابة التي قتلها ، وانتهاء بأمراضهم المستعصية التي كان الملك لا يستطيع بل ولا يلتفت إلى محاولة مداواتها ، فلا شك أن هذه الأمور مجتمعة تجعل هذا الجمع كله يعلم الظلم الواقع على الغلام .

وعندما يتساءلون ما جريمته ؟ يقال : لا شيء إلا أنه يقول ربي الله .

فهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله حريصين على أن لا يكون لهم تهمة إلا أن يقولوا : ربنا الله ، مع إحسانهم إلى الناس ، وعليهم أن لا يحزنوا من الظلم الواقع عليهم ، فإنه قدره الله لحكمة عظيمة ؛ لانتشار دينه وقبول الناس له ، كما أنه سرعان ما يزول فيكون لهم الأجر الجزيل عند ربهم وإلههم .

وقول الغلام للملك : « **ثم خُذْ سَهْمًا مِن كِنانَتي** » مزيد من إظهار عجز الملك وأنه ليس بيده الأمر ، فلو أخذ سهمًا من كنانة الملك لم يقتل الغلام حتى يأخذه من كنانة الغلام ، ليعلم الناس أن الأمر أمر رب الغلام ، وأن قتل الغلام كان بإرادته لا إرادة الملك .

وفي أمره أن يقول : « **بسمِ الله ربِّ الغُلامِ** » إعلان بالعجز التام والافتقار القهري الاضطراري إلى الله ـ سبحانه ـ ، وهو افتقار لا ينفعه ولا يثاب عليه ؛ لأن المطلوب شرعًا هو

الافتقار والعبودية الاختيارية لا الاضطرارية .

وفي نطق الملك أمام الجموع : « **بسمِ الله ربِّ الغُلامِ** » من وصول الدعوة إلى من رأى ومن لم ير ، أَخْذَ المَلِكِ السهمَ من كنانة الغلام ، فمن لم ير فليسمع ، ومن رأى فليزدَدْ يقينًا بقدرة الله ـ رب الغلام ـ وعظمته ووحدانيته .

فإن قيل : كيف أرشد الغلام الملك إلى طريقة قتله ، وتركه يقتله مع قدرته على الفرار ، مع أن الإرشاد إلى قتل مسلم أمر يكرهه الله ويحرمه .

فالجواب : هنا يظهر فقه الدعوة إلى الله في الموازنة بين المصالح والمفاسد وهذا الحديث أصل عظيم في تقرير ذلك .

فقتل الداعي إلى الله المعصوم الدم والمال مفسدة كبرى بلا شك ، ولكن مصلحة وصول دعوة الحق إلى الناس كافة ، ورؤيتهم أدلة صدقها ؛ مصلحة أرجح وأكبر من مفسدة قتل الداعي .

ولنتذكر هنا أن الغلام لم يكن عليه أن يؤمن الناس ولا بيده ولا بيد غيره القدرة على أن يؤمنوا ، إنما ذلك لله وحده

ولكن الواجب عليه وعلى الدعاة أن يوصلوا دعوة الحق للناس .

ومصلحة الدين مقدمة على مصلحة النفس ، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، من أجل ذلك جاز للغلام أن يدل الملك على طريقة قتله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود ، وفيها أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل ظهور الدين ، ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار ، وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين ، فإذا كان الرجل يفعل ما يعتقد أنه يقتل به من أجل مصلحة الجهاد ـ مع أن قتله نفسه أعظم من قتله لغيره ـ كان ما يفضي إلى قتل غيره لأجل مصلحة الدين التي لا تحصل إلا بذلك ودفع ضرر العدو المفسد للدين والدنيا الذي لا يندفع إلا بذلك أولى » .

ولابد هنا من الانتباه إلى أن هذا الأمر ـ وهو تعريض

النفس للقتل من الكفار ـ يختلف عن قتل نفسه بنفسه ، فالذي يظهر لنا والله أعلم الفرق بين العمليات المسماة بالانتحارية التي يباشر الشخص فيها قتل نفسه ، وبين إلقائه بنفسه وسط الكفار يباشرون هم قتله .

وكذلك لابد من الانتباه إلى أن الصبر على قتل النفس لمصلحة الدعوة وهو قادر على التخلص منه ولو بالفرار ـ ومثله انغماس المؤمن في صف الكفار ـ وهو يعلم إنما هو من باب ما يجوز أو ما يندب إليه لا من باب ما يجب ويحرم تركه ، فإن الفرار في هذه الحال رخصة ، فليس للإنسان أن يُلزم غيره ممن لا يرضى بذلك بهذا الأمر إلا أن يختاره [1] .

فإن قيل : ألم يكن الغلام يعلم باحتمال أن يقتل الملك الناس لو آمنوا بل يغلب على ظنه ذلك ، وهو يعلم عجز الناس عن الدفع عن أنفسهم ، فهو بالتالي قد ألزمهم الصبر على القتل خلافًا لما ذكرت ؟

(١) انظر إلى ملحق الكتاب « ما حكم العمليات المسماه بالاستشهادية أو الانتحارية ؟» صـ ١٢٤

فالجواب : أن الموازنة هنا بين البقاء على الكفر مع الحياة أو الدخول في الإسلام مع القتل ، ولا شك أن الدين مقدم على النفس ، فإذا علمنا أن كافرًا لو أسلم قتله أهله وقومه حتمًا لم يجز ترك دعوته إلى الإيمان لئلا يقتل ، بل يلزم دعوته إلى الإيمان ويلزمه الدخول في الدين ولو قتل .

نعم إن كان يمكن أن يكتم إيمانه حفظًا لمهجته جاز له ذلك ولم يلزم الإعلان .

وأما في قصتنا فالأمر يختلف ، فالناس لم يؤمنوا بعد ، فلو تركوا لبقوا على الكفر ، ولو أسلموا غلب على الظن قتلهم ، ولا توجد فرصة لتعليم الناس جميعًا الدين مع أمرهم بالكتمان كما فعل الراهب ، فلا يكون في الأمر مخالفة لما ذكرنا ، فإن ما نذكره من عدم لزوم الصبر على القتل للمصلحة ، وأن للإنسان أن يقدم حياته على الجهر بدينه كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل : ١٠٦] إنما هو في مسلم مؤمن قد دخل في الدين ظاهرًا وباطنًا ، وإنما يطلب منه الكفر ظاهرًا ولا سلطان لأحد على قلبه ، فالدين

هنا لا يضيع لوجوده في القلب وطمأنينته بالإيمان ، أما فيمن يضيع دينه ظاهرًا وباطنًا فلا شك أن قتله أهون شرًا وأقل مفسدة من مفسدة كفره .

فلا خلاف ـ بحمد الله ـ في أن مصلحة الدين مقدمة على مصلحة النفس وغيرها من المصالح ، بشرط أن نعلم أن المقصود بمصلحة الدين يشمل أيضًا الأمر الباطن ، ويصح أن يختلف عنه الظاهر عند الإكراه ، وإلا فلو طبقت هذه القاعدة ـ كما يقوله بعض الدعاة الذين يزجون بإخوانهم وغيرهم في مصادمات معلوم سلفًا عدم تكافئها وأن نتائجها تتضمن الأضرار والمفاسد عليهم وعلى المسلمين بزعم أن مصلحة الدين (وهي عندهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد) مقدمة على مصلحة النفس من قتل أو جرح أو تعذيب ويلزمون غيرهم بذلك ـ نقول لو طبقت هذه القاعدة بهذه الطريقة ـ نعني أن مصلحة الدين مقدمة على النفس ـ لانْسَدَّ باب العذر بالإكراه ، وهو خلاف نص القرآن والسنة والإجماع .

فإن قيل : فهل يسع المسلم الآن ـ في شريعة الإسلام ـ غير ما فعله الغلام أم لا يسعه سواه ؟

فالجواب : أنه لا شك أن ما فعله أمر عظيم الفضل من صَبَرَ عليه في شريعتنا فله الأجر العظيم عند الله ، وقد ذكره الرسول ﷺ في سياق المدح والثناء ، ولم يرد شرعنا بخلافه ، بل أتى بموافقته من تقديم الدين على النفس .

وإن كان يسع المسلم الآن أن يهاجر من تلك الأرض إلى أرض أخرى يفر بدينه من الفتنة ، ويسعه كذلك إن علم أنه يقتل وعجز عن الهجرة أن يوافق ظاهرًا وقلبه مطمئن بالإيمان وهي التقاة ، قال تعالى : ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً** ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

قال البغوي : « نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ، ومداهنتهم ، ومباطنتهم ، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين ، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم ، فيداريهم باللسان ، وقلبه مطمئن بالإيمان دفعًا عن نفسه ، من غير أن يستحل دمًا

حرامًا ، أو مالًا حرامًا ، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين ، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل ، وسلامة النية ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل : ١٠٦] ثم هذه رخصة فلو صَبَرَ حتى قتل فله أجر عظيم » أهـ .

ولكن لابد للدعاة إلى الله من التنبه إلى أن أمر الموافقة الظاهرة على الباطل - وقد يكون الكفر - إنما هو بشرط العجز عن الهجرة ، ففي أول فرصة للهرب لزمه الفرار وإلا كان كافرًا - والعياذ بالله - إن أظهر الكفر وهو قادر على الفرار ، فلا يتصور أن يتصدى الداعي الذي يضطر لإظهار الباطل للكلام باسم الإسلام ويروح ويجيء ويروج للباطل باسم الحق بزعم أنه مكره وأنه يفعل التقية الجائزة فهذا تلبيس عظيم وانحراف عن طريق المرسلين فإن مقام الدعوة مقام آخر غير مقام التقاة .

وما دام قد سمح له بالحركة فلتكن أول حركته في الفرار بدينه لا في أن يستمر في إلباس الباطل ثوب الحق ، وليحذر

أن يكون جنديًا للباطل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٧-٩٩] .

وليعلم الدعاة إلى الله أن فضل دخول الناس في دين الله أفواجًا على أيديهم ، وثواب إقامة المجتمع المسلم والدولة المسلمة التي يعبد الله فيها الأجيال تلو الأجيال يتحقق لمن أخذ بالعزائم .

فأولياء الله يحافظون على النوافل بعد الفرائض ، نعم من أخذ بالرخصة وترك العزيمة نجا ، ولكن أنتم يا دعاة الإسلام تزعمون أنكم تريدون تعبيد الناس لله وفضل هدايتهم إلى الله لا هداية أفراد فقط ، بل مجتمعات وأمم ، بل تريدون عودة الإسلام إلى العالم وإقامة الخلافة على منهاج النبوة التي تُعْلي كلمة الله في الأرض كلها ، أفترونكم تنالون

هذا بغير ثمن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

قوله ﷺ : « **فَجَمَعَ الناسَ في صَعيدٍ واحِدٍ ، وصَلَبَه على جِذْعٍ ، ثم أَخَذَ سَهْمًا مِن كنانَتِه ، ثم وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ ، ثم قال : بسمِ الله ربِ الغلامِ ، ثم رماه فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَه في صُدْغِه في مَوْضعِ السَّهمِ فماتَ ، فقال الناسُ : آمنا بالله ربِّ الغُلامِ** » .

في غباء منقطع النظير ، وحقد أعمى ، وعناد على الباطل ربما لا يشبهه إلا غباء فرعون وحقده وعناده عندما اقتحم البحر الذي رآه ينفلق أمامه لموسى عليه السلام وبني إسرائيل ، فعل الملك ما أمره به الغلام ، وحدث ما أراد الغلام .

ظهر الحق عاليًا بقوة الحجة والبيان ، وبكرامة الله لأوليائه الصالحين ، ومالت القلوب إلى فطرتها الأولى بتوحيد الله والكفر بالطاغوت ، فآمن الناس بالله رب الغلام ، ذهب الغلام شهيدًا وليس بأول الشهداء ولا آخرهم ، فحيّ هو عند الله ، وحيَّتْ دعوة الحق والإيمان في قلوب الناس ، وتحول الشعب الجاهل المنقاد للباطل ، الذي قبل لمدة سنين طويلة أن الملك هو ربه تحول كله إلى الإيمان بالله وحده .

وما أعظم شرف الغلام ومكانته حين يعرف الناس ربهم وإلههم به فيقولون : آمنا بالله رب الغلام ، فهو رب الغلام وهو رب العالمين ، فكفى بذلك للغلام شرفًا أن يكون اسم الرب سبحانه مضافًا إلى اسمه ، كما قال السحرة عند إيمانهم ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٧-٤٨] ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

أمة كاملة آمنت بسبب غلام ! يا لفرحة أستاذه ومربيه ذلك الراهب العابد الموحد الذي لقي الله قبله ، ولم ير في حياته على الأرض ثمرة دعوته ، يا لفرحته عند لقاء الله ، وقد كان سببًا في إيمان أمة ، فلا تُيَئّسوا أيها المربون أبناءكم في الدعوة ، فقادة الأمة في المستقبل القريب ودعاتها وعلماؤها ومجاهدوها هم الآن أطفال وغلمان بين أيديكم عسى الله أن يجعل الفرج على يد أحد منهم .

قوله ﷺ : « **فأُتِيَ المِلِكَ فقيلَ له : أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قد والله نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ ، قد آمَنَ الناسُ ، فَأَمَرَ بالأُخدُودِ بأفواهِ السِّكَكِ فخُدّتْ** (أي حُفِرَتْ) **وأَضْرَمَ النيران ، وقال : مَنْ لم يَرْجِعْ عن دِينِه فأَقْحِمُوهُ فيها أو قِيل له : اقْتَحِمْ ، فَفَعَلوا حتى جَاءتِ امرأةٌ ومعها صَبيٌّ لها فَتَقَاعَسَتْ أن تَقَعَ فيها** ـ أي تَرَدَّدَتْ وهَمَّتْ أنْ تَرْجِعَ ـ **فقال لها الغلامُ** (أي الصبي) : **يا أُمَّه اصْبِرِي فإنَّكِ على الحقِ** » .

رغم كل الآيات التي رآها الجميع لا يزال الطغيان يجد له أعوانًا ينفذون له أوامره الكفرية ، ولا يزال هناك من يرى الحق أوضح من شمس النهار ، ثم يتجسس للملك ويخبره أخبار الناس ، وهو يعلم أنه إنها يحذر من الإيهان وأن المشكلة من بدايتها كانت محاولة الصد عن سبيل الله .

فسبحان الله الذي طمس على القلوب إلى هذه الدرجة ، لا على قلوب الملوك فقط ، بل قلوب الحاشية والأعوان الذين يرفعون التقارير إلى الملك بانتشار الدين الحق في المملكة فلابد من التصرف ، وأي تصرف بقي بعد كل ما حدث ؟ ليس إلا

المزيد من البطش والإجرام ، وهو يتفنن في طرق التعذيب والقتل ، وله فيه خبرة سابقة وتجربة ماضية ، فيأمر بالأخاديد - أي الحفر - فتُحفر في أفواه الطرق ، ويأمر بقتل المؤمنين لإيمانهم حرقًا بالنار لأنهم أبوا الردة والرجوع عن الإسلام .

ووالله إن المرء ليتعجب من وجود الأعوان و الجنود الذين ينفذون مثل هذه الأوامر ، تمامًا مثلما وجد فرعون من يقتل له السحرة ، ومن يقتحم خلفه البحر ، وكما نجد في كل زمان للباطل الذي ظهر بطلانه للناس كافة وظهر كذبه وظلمه ونفاقه وكفره أن ينتشر في الناس ، نجد له الجنود والأشياع لنعلم أنه ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ، وأنه ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وكما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

ولنتأمل كيف قبل الناس الوقوع في النار ، وفعلوا وصبروا هم وأطفالهم ونساؤهم ؟ قد تمكن الإيمان من قلوبهم

فأصبح أن يُلْقَوا في النار أحب إليهم من أن يرجعوا إلى الكفر ، إنها حلاوة الإيمان كما قال النبي ﷺ : « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ** [1] » .

وفي الحديث دليل على أن المسلم لو خير بين أن يقتل ويقتل صبيانه معه على التوحيد ، وبين أن يؤخذوا منه فينشؤوا على الكفر لكان الخيار الذي يلزمه أن يقتل هو وصبيانه ؛ لأن الدين مقدم على النفس ـ كما بينا ـ ولا يرضى بكفر أولاده الصغار ، ولو كانوا دون البلوغ ودون التكليف والله أعلم .

وفي قول الصبي لأمه : « **يا أُمَّه اصْبِرِي فإنَّكِ على الحَقِّ** » بيان الفطرة السليمة التي فطر الله العباد عليها ، ومنها الصبر على الحق إلى لقاء الله ـ سبحانه ـ ، والله أعلم ، هل كان هذا الصبي في مهده كما ذكر بعض أهل العلم أن هذا الصبي ممن تكلم في المهد أم كان أكبر من ذلك فليس في شيء من هذا

(١) البخاري باب حلاوة الإيمان (١٦/ ١) .

دليل صحيح ، فالله ورسوله أعلم .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ [البروج : ٤] سياقًا آخر مختصرًا وفيه : « **وخَدَّ أُخْدُودًا من نارٍ وقال لهم الجبارُ وَوَقَفَهم عليها : اختَاروا هذهِ أو الذي نحنُ فيه . فقالوا : هذه أَحَبُّ إلينا ، وفيهم نساءٌ وذُرِّيَّةٌ فَفَزِعَتِ الذريةُ فقالَ لهم آباؤُهم : لا نارَ مِن بعدِ اليوم فَوَقَعوا فيها فقُبِضَتْ أرواحُهم مِن قَبْلِ أن يَمَسَّهم حَرُّهاَ ، وخَرَجَتِ النارُ مِن مَكانِها فأحاطَتْ بالجبَّارِينَ فأَحْرَقَهمُ اللهُ بها ، ففي ذلك أنزلَ اللهُ ﷻ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝ ﴾ [البروج : ٤] إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٩]** » ويشهد لمعنى ما ذكره الربيع بن أنس من قبض أرواحهم قبل وصولهم للنار ، قول النبي ﷺ : « **ما يَجِدُ الشَّهيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إلا كما يَجِدُ أَحَدُكم مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ** » [(١)] .

ولنشرع الآن في ذكر القصة في القرآن العظيم .

---

(١) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب (١٥٩١) ، والنسائي (٣١١٠) ، وابن ماجه (٢٧٩٢) ، وأحمد (٧٦١٢) ، والدارمي (٢٣٠١) .

قصة أصحاب الأخدود في القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

لم يذكر القرآن تفاصيل القصة كما وردت في السنة ولكن ذكر الله سبحانه نهاية القصة وعظيم فوائدها .

أقسم ـ سبحانه ـ بالسماء ذات البروج وهي النجوم ، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة .

﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ روى الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا قال : « **اليومُ الموعُودُ : يومُ القِيامةِ ، واليوم المشْهُودُ : يومُ عَرفَةَ ، والشاهدُ : يومُ الجمعةِ** »[1] .

أقسم ﷻ بهذه الأقسام ، والله له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته تعظيمًا لصانعها وخالقها ، وإرشادًا للعباد لما تتضمنه من آيات قدرته وعلامات وحدانيته .

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ هذا هو المقسم عليه وفي معناه قولان للعلماء :

الأول : لعنوا .

والثاني : قتلوا على ظاهره ـ كما سبق ذكره عن الربيع بن أنس ـ وأن النار أحرقت الجبارين ، ولنتدبر هنا أن الله ـ سبحانه ـ

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٩) ، وحسنه الألباني .

إنما ذكر قتل الطغاة الجبارين .

فالمؤمنون الذين قتلوا أو حُرقوا في ظاهر الحال ، هم شهداء فهم أحياء عند ربهم كما قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

والذين قَتَلُوا في ظاهر الحال ذكر الله أنهم هم الذين قُتِلُوا فحيث أرادوا قتل أولياء الله قتلهم الله وأحيا أولياءه حياة دائمة .

وقوله تعالى : ﴿ **النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾ يخبر ﷻ أنهم أعدوا للنار وقودًا يسعرونها به .

﴿ **إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾ فهم قاعدون يشاهدون ما يفعلونه من الجرائم بالمؤمنين ، فليسوا في غفلة كما يحلو دائمًا للطغاة أن يحملوا جنودهم وأشياعهم مسؤولية جرائمهم بالمؤمنين فهم الآمرون المشاهدون لهذه الفظائع ، وهم المحاسبون عليها عند الله هم وأتباعهم .

قوله تعالى : ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ**

﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ أي : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله ، فهذه حقيقة القضية ، فمهما حاول الطغاة أن يخدعوا الناس ويصوروا لهم صراعهم مع أهل الحق على أنه من أجل حرص أصحاب الحق على الرياسة والملك مثلما قال فرعون وقومه لموسى وهارون : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٧٨] .

فالتهمة عندهم في الحقيقة ليست إلا الإيمان بالله ـ سبحانه ـ ، وما أشرف هذا الاتهام الذي ينبغي أن يحرص المؤمنون على أن يكون هو تهمتهم الوحيدة .

وتدبر ذكر اسمي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ في هذا الموضع فالله هو ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يُغالب ، ولا يُمانع وهو ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ في انتقامه من أعدائه ، فهم يحاولون مغالبة الإيمان وظهور الحق وأنى لهم ذلك ، والله هو ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ الذي يعز دينه ، ويعلى كلمته وينصر أولياءه ، والله هو ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحمد على كل ما شرع وعلى كل ما قدر ، فلا يظنن أحد أن ما قدر الله ـ سبحانه ـ من ابتلاء

المؤمنين وتسليط أعدائهم عليهم حتى حرقوهم بالنار هو بغير حكمة يستحق عليها الحمد ، بل هو ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ الذي هو أهل الثناء والمجد والحمد والشكر ، فلابد أن يحمده أهل الإيمان على العافية والبلاء معًا وعلى السراء والضراء معًا ، فله الحكمة التامة ، والحمد التام في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

هذه الأسماء والصفات لابد أن تكون دائمًا مستحضرة في قلب المؤمنين يشاهد آثارها ، ويتذكر معانيها فلا يغيب عنه أن الله هو الملك لا ملوك الأرض ، وأن ما جرى لأوليائه ليس لأن الأرض خرجت عن ملكه ، بل ما وقع لهم إنما هو بأمره هو تعالى ، فهذا ظن الذين كفروا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يفعلون ، ولذا لم ينصر أولياءه ، فظنوا بربهم ظن السوء ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٣] .

أما المؤمنون فهم يعلمون أنه على كل شيء شهيد ، على ما وقع لهم من بلاء وتمحيص ، وعلى غيره مما يجري في هذا

الكون بأمره وعلمه وحكمته ﷻ .

ثم يبين ﷻ عاقبة الفريقين على خلاف ما ظهر في الدنيا فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فالذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات وماتوا بلا توبة هم المعذبون ، أرادوا إحراق المؤمنين ، فجعل الله جزاءهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، ولم يجعل ﷻ على المؤمنين من ألم فقبض أراوحهم قبل أن تصل إلى النار ، ولم يجدوا من ألم القتل إلا كمَسّ القرصة .

فسبحان الله الذي جعل السعادة والراحة واللذة والأمن مع الإيمان ، وجعل الشقاء والعذاب والألم والخوف مع الشرك والكفران فمن فر من فتنة الناس فوافقهم على باطلهم وقع في عذاب الله ، ومن تحمل فتنة الناس إرضاء لربه وربهم نجاه الله منهم وكتب له سعادة الدنيا والآخرة .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ قال الحسن البصري : « انظُرْ إلى هذا الكرَمِ والجودِ ، قَتَلوا أولياءَه وهو يدعُوهم إلى التوبةِ والمغفِرةِ » .

فباب التوبة مفتوح حتى للطغاة والمجرمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ولا يظن مؤمن أوذي في الله أن الله لا يمكن أن يغفر لمن عذبه وأنه لابد أن يدخله النار ، فهذا كالذي يتألى على الله أن لا يغفر لفلان ، فليس واحد من المؤمنين بأكرم على الله من نبيه محمد ﷺ الذي جرحه الكفار وكسروا رباعيته فقال : « **كيفَ يُفْلِحُ قومٌ شَجُّوا نبيَّهُم وكَسَرُوا رباعِيَّته** » [1] فأنزل الله عليه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

فتاب عليهم فأسلموا ، فالأمر لله وحده ، يهدي من يشاء ويعافي فضلًا ، ويضل من يشاء ويبتلي عدلًا .

وبينت الآيات الموازين الصحيحة في النصر والهزيمة والفوز والخسران ، فمن الذي فاز ، ومن الذي خسر ؟

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ليعلم المؤمنون والدعاة إلى الله أن الفوز ليس متوقفًا على التمكين في الأرض وإقامة دولة

(١) بوب عليه البخاري ، رواه مسلم (٣٣٤٦) ، وأحمد (١٣١٦٤) .

الإسلام ، بل قد يكون قدرهم الذي أراده الله أن يرحلوا مثلما رحل أصحاب الأخدود قبل أن يروا مرادهم الذي يحبون من بناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة والتمكين في الأرض ، ومع ذلك فهم الفائزون الفوز الكبير .

فالإيمان والعبودية لله والعمل بطاعته هو الغاية المقصودة وهي مقياس الفوز والفلاح .

ولهذا فعمل المؤمنين على ذلك ، قد تجردوا لله سبحانه حتى من حظ أنفسهم في رؤية النصر والتمكين الذي ساروا في طريقه .

وإن كانت الرغبة في إعلاء كلمة الله في الأرض ونصرة دينه رغبة مطلوبة شرعًا يتعبد بها المؤمن لله ، ولكنه لا يوجب على ربه شيئًا ولا يلزم أن يكون شخصه هو الذي يتحقق به هذا الهدف فهو أمر حاصل لا محالة إذ هو وعد الله يتحقق به أو بغيره لا يهمه ذلك فوظيفته في العبودية قد أداها وأجره على ذلك لا يضيع .

ثم بين ﷻ بطشه وانتقامه من أعدائه فيقول : ﴿ إِنَّ بَطْشَ

رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ فليس للكفر والنفاق في أي أمر من أمور الخلق بدء ولا إعادة .

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ يغفر ذنوب المؤمنين التائبين ويجعل لهم ودًا عنده سبحانه ثم في قلوب الخلق .

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ أي صاحبه ومالكه .

﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ على قراءة الرفع ، فالمجد صفة الله ـ سبحانه ـ وعلى قراءة الكسر فهو صفة العرش ، وكلاهما صحيح .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ مهما أراد فعل ، لا معقب لحكمه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، ثم بيّن ـ سبحانه ـ سنته في كل الطغاة والمجرمين فيقول : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أي كيف كان مصيرهم إلى هلاك وأمرهم إلى بوار ؛ لأنهم قاموا على الباطل وإذا جاء الحق ما يبدئ الباطل وما يعيد كما قال : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴾ أي في شك وريب وكفر وعناد ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ فهو قادر عليهم لا يفوتونه ولا

يعجزونه محيط بمكرهم وكيدهم ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : « أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل » .

نسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجعلنا من عباده الصالحين ، وأن يرزقنا حبه وحب من يحبه والعمل الذي يبلغنا حبه ، وأن يجعل حبه أحب إلينا من أنفسنا وأهلينا ومن الماء البارد ، وأن يثبتنا على الهدى والإيمان إلى أن نلقاه راضيًا عنا ، وأن يلحقنا بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

انتهى ما أردت جمعه من فوائد قصة أصحاب الأخدود من الكتاب والسنة فما كان منه من صواب فمن الله وهو الذي تفضل به ، وما كان من خطأ فمن الشيطان ومني ، والله بريء منه ورسوله ﷺ وأستغفر الله وأتوب إليه منه ومن غيره إنه هو الغفور الرحيم .

ما حكم العمليات المسماه بالاستشهادية أو الانتحارية ؟

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ .

فقبل الإجابة عن هذا السؤال لابد من تحرير محله وبيان أنواع ما يسمى بالعمليات الاستشهادية أو الانتحارية عند من يمنعها، وذلك أنها تشمل عدة صور :

منها أن ينغمس المسلم بسلاحه وسط الكفار مقاتلًا لهم لإحداث نكاية بهم وقتل أكبر عدد منهم ، أو لتقوية قلوب المسلمين وإرهاب عدوهم أو لتحقيق مصلحة من مصالح الجهاد كفتح حصن أو نحوه . وهو يغلب على ظنه أنه يقتل ، فهذه الصورة لا يكاد يختلف فيها من جهة السبب في القتل أو مباشرته إذ لا يقتل بسلاح نفسه ، وإنما الاختلاف فيها من جهة تحقيق المصلحة أو حصول المفسدة. وكذا من جهة المسائل الأخرى الآتية من جهة مراعاة عقد الهدنة أو الأمان

وكذا مسألة النية والراية وغيرها .

فلا يجوز نقض العهد سواء كان بهدنة أو أمان بالقيام بمثل هذه الأعمال في بلاد لها عهد مع المسلمين أو في وسط كفار دخلوا بلاد المسلمين بأمان ولم يدخلوا بقوة السلاح كمحتلين أو مغتصبين ، ولا يجوز كذلك في بلاد دخلها مسلم أو مسلمون بأمان إذ أن جمهور العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم يرى أن عهد الأمان من الكفار لمسلم هو عهد أمان منه له لأن المشروط عرفا كالمشروط لفظاً.

ولا يجوز القيام بهذه العمليات بطولة وشجاعة دون نية إرادة وجه الله ونصرة دينه وإعزاز المسلمين وإرهاب الكافرين فلقد كان يفعل مثلها الطيارون اليابانيون مع الأمريكان وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولكن فعلوها بطولة ووطنية فلا يسمى من فعل مثل ذلك شهيدًا و كذلك من فعل مثل هذه العمليات تحت راية عمية لعموم قول النبي ﷺ : « **من قاتل تحت راية عمية فمات فميتته جاهلية** » رواه مسلم وغيره .

وقال الغزالي في الإحياء (٧/ ٢٦) : « لا خلاف أن المسلم

الواحد له أن يهجم على صف الكفار ويقاتل وإن علم أنه يقتل ... وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يقتل ؛جاز أيضًا ذلك في الحسبة » .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٣) : « اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب وحمله على العدو وحده فقال القاسم بن مخيمرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كانت فيه قوة، وكان لله بنية خالصة ، فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة، وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل لأن مقصوده واحد منهم ، وقال ابن خويز منداد : فأما أن يحمل الرجل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنه أنه سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أنه يقتل ولكنه سينكي نكاية أو سيبلي أو يؤثر أثرًا ينتفع به المسلمون فجائز أيضًا...

و كذلك يوم اليمامة لما تحصنت بنو حنيفة بالحديقة قال رجل من المسلمين ضعوني في الحَجَفة وألقوني إليهم. ففعلوا،

فقاتلهم وحده وفتح الباب ، قال القرطبي : ومن هذا أن رجلًا قال للنبي ﷺ : أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا ؟ قال : « **فلك الجنة** » . فانغمس في العدو حتى قُتل .

قال ابن حجر في الفتح (٨/ ١٨٥) : « وأما مسألة حمل الواحد على العدد الكثير من العدو فصرح الجمهور بأنه إن كان لفرط شجاعته وظنه أنه يرهب العدو بذلك أو يجرئ المسلمين عليهم أو نحو ذلك من المقاصد الصحيحة فهو حسن، ومتى كان مجرد تهور فممنوع ولا سيما إن ترتب على ذلك وهن في المسلمين والله أعلم .

وقال محمد بن الحسن في السير الكبير (١/ ١٦٣) : « لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاة أو نكاية في العدو ، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ، لانه عرض نفسه للتلف في غير منفعة للمسلمين، فإذا لم يكن قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه لأن فيه نفعًا للمسلمين على بعض الوجوه ، فإن كان قصده إرهاب العدو ليعلم العدو صلابة المسلمين في الدين فلا يبعد جوازه وإذا كان

فيه نفع للمسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهية الكفر؛ فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة : ١١١] .

أما الصورة الثانية : فهي أن يركب سفينة فيها جنود الكفار أو يحتل فندقًا فيه مقاتلو الكفار ويضع فيه المتفجرات ونحو ذلك ويعلم أنه سيقتل ضمن من يقتل .

وكذلك صورة من يلتف بحزام ناسف أو يقود سيارة ملغومة فيفجرها في معسكر الكفار أو مبانيهم .

فهاتان الصورتان وإن فرق بينهما البعض إلا أنهما في الحقيقة صورة واحدة وهوأنه يقتل بسلاح نفسه فهذه محل الخلاف ، حيث منعها بعض العلماء احتجاجًا بأحاديث النهي عن قتل النفس ومنها ما رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا » .

ومنهم من منعها لأجل ما يترتب عليها من مفاسد لا لأجل صفة القتل، ومن هؤلاء فضيلة الشيخ الألباني رحمه الله وكذا الشيخ العثيمين رحمه الله ، ومنهم من أجازها بشروط تحصيل المصلحة الأعظم والنية الصالحة وتحت الراية الإسلامية .

واحتجوا بحديث الغلام في أصحاب الأخدود حيث قال للملك : « إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي » ، وفي الحديث أنه فعل ذلك فقتله، « فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ » ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قصة أصحاب الأخدود وفيها أن الغلام أمر بقتل نفسه لأجل مصلحة ظهور الدين ، ولهذا جوز الأئمة الأربعة أن ينغمس المسلم في صف الكفار وإن غلب على ظنه أنهم يقتلونه إذا كان في ذلك مصلحة المسلمين ...

وإذا كان الرجل يفعل ما يعتقد أنه يقتل به لأجل مصلحة

الجهاد مع أن قتله نفسه أعظم من قتله لغيره كان ما يفضي إلى قتل غيره لأجل مصلحة الدين التي لا تحصل إلا بذلك ودفع العدو المفسد للدين والدنيا الذي لا يندفع إلا بذلك؛ أولى .

فقد سمى شيخ الإسلام ما فعله الغلام (قتل نفسه) وداخلًا كأصل في الوعيد الشديد الذي هو أغلظ من قتل الغير ومع ذلك جاز للمصلحة الراجحة .

وفي صحيح مسلم في حديث سلمة بن الأكوع : « وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ فَرَجَعَ سَيْفُهُ عَلَى نَفْسِهِ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ قَالَ سَلَمَةُ فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَتَلَ نَفْسَهُ قَالَ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ : بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ قَالَ ذَلِكَ** » قَالَ : قُلْتُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِكَ قَالَ : « **كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ** » قال النووي في شرح مسلم (٥/ ٤١٨) في شرحه لحديث سلمة بن الأكوع من باب غزوة ذي قَرَد وغيرها وفيه اتباع سلمة وحده للمشركين ، وفيه مقتل عامر بن الأكوع في غزوة خيبر بسيف نفسه: « ومنها إلقاء النفس في غمرات القتال وقد اتفقوا على جواز التغرير

بالنفس في الجهاد في المبارزة ونحوها » .

وقال : « وفيه أن من مات في حرب الكفار بسبب القتال يكون شهيدًا سواء مات بسلاحهم أو رَمَتْه دابته أو غيرها أوعاد عليه سلاحه كما جرى لعامر » ، فلما كان قصد عامر قتل (مرحب) اليهودي الكافر ولكنه أصابه سيف نفسه كان شهيدًا ، ومن قام بهذه العمليات لا يقصد قتل نفسه بل قصد قتل الكفار ، وإن كان يُقتل بسلاح نفسه ، ولقد أكذب النبي ﷺ من التفت إلى صفة القتل دون قصد المقاتل ولم يجعله قاتلًا لنفسه بل جعله شهيدًا ، فالعبرة بقصد المقاتل ونيته وإن كانت الصورة أنه قتل نفسه ؛ لأنه لم يعاجل ربه بنفسه ولم يضجر ولم يسخط على قضائه بل غرضه فداء دينه وأمته بنفسه ، وقد سبق النقل عن النووي في فوائد هذا الحديث أنه شهيد ولو عاد عليه سلاحه.

قالوا : ومما يدل على أنه لا فرق بين المباشرة والتسبب ؛ ما ذكره أهل العلم فيما إذا احترقت سفينة ؛ هل يلقي الرجل بنفسه ليغرق أم لا ؟ قال في المدونة : قال سحنون لابن القاسم: أرأيت السفية إذا أحرقها العدو وفيها أهل الإسلام أكان مالك يكره لهم أن يطرحوا أنفسهم ؟ وهل يراهم قد

أعانوا على أنفسهم ؟

قال: بلغني أن مالكًا سئل عنه، فقال : لا أدري به بأسًا ، إنما يفرون من الموت إلى الموت.

قال ابن قدامة في المغني : « وإذا ألقى الكفار نارًا في سفينة فيها مسلمون فاشتعلت فيها فما غلب على ظنهم السلامة فيه من بقائهم في مركبهم.أو إلقاء نفوسهم في الماء فالأولى لهم فعله ، وإن استوى عندهم الأمران؛ فقال أحمد: كيف شاء صنع. قال الأوزاعي : هما موتتان فاختر أيسرهما .

فهذا يدل على أن أهل العلم لم يفرقوا بين أن يموت بفعله أو فعل غيره، ولم يعولوا على هذا الوصف ولا جعلوه مناط الحكم .

وقالوا : وغلبة الظن تقوم مقام العلم في الأحكام فلا فرق بين صورة الانغماس التي يغلب أن يقتله الكفار وبين صورة التفجير التي يعلم أنه يقتل فيها ؛ لأن غلبة الظن تقوم مقام العلم .

وممن أفتى بجواز ذلك الشيخ/ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية حين قال في فتاواه (٦/ ٢٠٧- رقم ١٤٧٩) : « جاءنا جزائريون ينتسبون إلى الإسلام يقولون: هل يجوز للإنسان أن ينتحر مخافة أن يضربوه بالشرنقة (حقنة مخدرة

ينتزعون بها الاعترافات) ويقول : أموت وأنا شهيد مع أنهم يعذبونهم بأنواع العذاب ؟ فقلنا لهم: إذا كان كما تذكرون فيجوز ، ومن دليله : « آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ » ، وقول بعض أهل العلم : السفينة .. الخ . إلا أن فيه التوقف من جهة قتل للإنسان نفسه ومفسدة ذلك أعظم من مفسدة هذا والقاعدة محكمة وهو مقتول ولابد » اهـ .

ونحن نرى أن الصواب تحريم قتل النفس خوفًا من التعذيب بل يصبر ويحتسب والله المستعان ، أما في مسألة المصلحة للمسلمين ودفع المضرة عنهم فهي مسألة اجتهاد سائغ لا ينكر فيه على مجتهد ولا مقلد لمجتهد ولا مفتٍ .

وأما أهل العلم الذين يمنعون من هذه العمليات لأجل مضرتها الأشد [1] ؛ فالحقيقة أن الخلاف هنا في تحقيق المناط،

---

(١) قال الشيخ الألباني ﷺ في جواب سائل يقول : بالنسبة للعمليات العسكرية الحديثة فيه قوات تسمى بالكوماندوز يكون فيه قوات للعدو تضايق المسلمين فيصنعون فرقة انتحارية تضع القنابل ويدخلون على دبابات العدو ويكون هناك قتل فهل يعد هذا انتحارًا ؟ الجواب :
لا يعد هذا انتحارًا لأن الانتحار هو أن يقتل المسلم نفسه خلاصة من هذه الحياة التعيسة، أما هذه الصورة التي أنت تسأل عنها فهذا ليس انتحارًا بل هذا جهاد في سبيل الله ... وإنما يكون هذا بأمر قائد الجيش، فيقول: له تسلح بالقنابل أو اركب الطائرة واذهب بها إلى الجماعة الموجودين في =

أعني أنه هل هذه الأمور فيها المصلحة الراجحة أم مفاسدها أعظم ؟ وهذا ينبغي إدراك الاختلاف فيه بين بلد وبلد وحالة وأخرى وقدر المصالح والمفاسد، وأقدر الناس على ذلك أهل العلم من أهل السنة في المحِل الذي تقع فيه هذه الأمور، مسترشدين بأهل الخبرة العسكرية والسياسية في محلتهم، وإن عدم ذلك فالأصل المنع؛ لأن المفسدة في قتل النفس متيقنة والمصلحة مظنونة .

الأرض الفلانية هذا انتحار يجوز، أما أن يأتي واحد من الجنود كما يفعلون اليوم أو من غير الجنود وينتحر في سبيل قتل اثنين أو ثلاثة أو أربعة من الكفار فهذا لا يجوز؛ لأنه تصرف شخص ليس صادرًا عن أمير الجيش » انتهى باختصار (من الشريط رقم ٥٢٧ ، ١٣٤) سلسلة الهدى والنور .

الفهرس

الموضوع **الصفحة**